

الإمام الشافعي

تأليف

مصطفى عبد الرزاق

الناشر

شركة نوافل الفقه



شركة نوابغ الفكر ، القاهرة

البريد الإلكتروني :

Nawabgh_elfakr@hotmail.com

هاتف: ٢٥٩٣٦٤٠٢

فاكس: ٢٧٨٦٥٥٥٣

فهرست الهيئة المصرية العامة

لدار الكتب والوثائق القومية :

الامام الشافعى

تأليف : مصطفى عبد الرازق

ط١ القاهرة : شركة نوابغ الفكر 2016

عدد الصفحات :

١- الفقهاء الشافعية

٢- الامام الشافعى ، محمد بن ادريس بن العباس الهاشمى القرشى ، ٧٦٧-٨٢٠

١-العنوان

رقم الايداع : ٢٠١٥/٢١٦٦٠

التزقيم الدولي: 3-42-6415-977-978

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

الشافعی واضع أصول علم الفقه

الشافعی هو أحد الأئمة الأربعة الفقهاء: أبی حنیفة النعمان بن ثابت الكوفی المتوفی سنة «١٥٠هـ - ٧٦٧م»، وأبى عبد الله مالك بن أنس الأصبحی المدنی المتوفی سنة «١٧٩هـ - ٧٩٥م»، وأبى عبد الله محمد بن إدريس الشافعی المکی المتوفی سنة «٢٠٤هـ - ٨٢٠م»، وأبى عبد الله أحمد ابن حنبل البغدادی المتوفی سنة «٢٤١هـ - ٨٥٥م».

وهؤلاء الأئمة هم الذين استقرت مذاهبهم فی الفقه الإسلامی بین جمهور المسلمین منذ نحو ألف عام، وتلاشى ما عداها من المذاهب كمذهب «الحسن البصری» المتوفی سنة «١٦١هـ - ٧٧٧م»، ومذهب «سفيان الثوري» المتوفی سنة «١٦١هـ - ٧٧٧م»، ومذهب عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي» المتوفی سنة «٢٤٠هـ - ٨٥٤م»، ومذهب «محمد بن جرير الطبري» المتوفی سنة «٣١٠هـ - ٩٢٢م».

وطالت مدة المذهب الظاهري الذي أسسه «داود بن علي الأصفهاني» المتوفی سنة «٢٧٠هـ - ٨٨٣م» وزاحم المذاهب الأربعة، ودرس بعد القرن الثامن.

والتنافس بين المذاهب الأربعة على الغلبة والانتشار والسلطان قديم يرجع إلى عهودها الأولى، ولعل بعض آثاره لا تزال باقية إلى اليوم.

ولئن كان هذا التنافس قد أدى في بعض الأحيان إلى إثارة أحقاد وفتن بين العامة، فإنه في أكثر أمره كان سبب حياة عقلية، ونشاط فكري، وتسابق إلى الإتقان والكمال في البحث العلمي.

فإن أهل كل مذهب كانوا لا يفتؤون يتفنون في جعل مذهبهم مسيراً لأفهام الناس وأذواقهم، متسعا لما يتجدد من حاجتهم، متميزا بلطف الاستنباط وحسن التخريج، كثرة الجمع للمسائل، وجودة التأليف، حتى أصبحت علوم الأحكام الشرعية أكمل مظهر للمجهود العقلي العظيم في الإسلام بوفرة أبحاثها ومؤلفاتها التي لا يحصى عديدها، وبما في كثير من هذه المؤلفات والأبحاث من ابتكار وإبداع.

لا جرم كان التراث الفقهي الإسلامي من أنفس ما ادخر البشر من مباحث المتفقيين.

وأنازع في أن لأشخاص واضعي المذاهب أثرا في رواج مذاهبهم وإقبال الناس عليها، وتغلبها على ما عداها.

وقلما تمتاز عند الجمهور مقالات المفكرين عن صورهم وأشخاصهم^(١).

(١) نقل ابن حجر عن زكريا الساجي، أنه سمع هارون بن سعيد الأيلي يقول: ما رأيت مثل الشافعي، قدم علينا مصر فقيل رجل من قريش فجنناه وهو يصلي فما رأينا أحسن صلاة نه ولا أحسن وجها، فلما تكلم ما رأينا أحسن كلاما منه، فافتنا به. ص ٥٩.

وأخرج الأبري من طريق الربيع قال: لما قدم الشافعي مصر وقعد في مجلسه كان يجالسه رؤساء أصحاب الحلق: عبد الله بن عبد الله بن عبد الحكم ونظراؤه، وكان الشافعي حسن الوجه والخلق، فحبب إلى أهل مصر من الفقهاء والنبلاء والأعيان. ص ٦٢.

ومن أجل هذا كان من وسائل أهل المذاهب الأربعة لنشر مذاهبهم والدعوة لها: وضع المصنفات في مناقب الأئمة أصحاب هذه المذاهب، وفي الترجمة لحياتهم على وجه يبرز فضائلهم، ويبين مزايا مذاهبهم.

وقد تفرد الأئمة الأربعة بكثرة ما دون من المؤلفات في تراجمهم حتى ليقول «أبو زكريا النواوي» المتوفى سنة «٦٧٦هـ - ١٢٧٧م» في شرحه للمذهب المسمى بالمجموع: «وقد أكثر العلماء من المصنفات في مناقب الشافعي رحمه الله وأحواله من المتقدمين كداود الظاهري وآخرين، ومن المتأخرين كالبيهقي وخلائق لا يحصون».

ويقول أبو حفص عمر بن أبي الحسن الشافعي المعروف بابن الملقن في كتابه «العقد المذهب في تاريخ المذهب» المؤلف في القرن الثامن الهجري: «وترجمة الشافعي حذفناها في هذا المؤلف لأنها أفردت تأليفاً فبلغت نحو أربعين مؤلفاً».

على أن كثرة هذه المؤلفات وإن وفرت للمؤرخ مراجع البحث فإنها تقوم في الغالب على العصبية لإمام علي إمام، فلا تخلو من سرف في المدح وسرف في الذم، وجدل فيما ينسب لهذا من المناقب وما ينسب لهذا من الهنات، ولا تخلو من اعتماد على روايات ظاهرة البطلان، وعلى الأحلام والرؤى.

ومن أمثلة ذلك: ما ورد في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان لمحمد بن محمد بن شهاب المعروف بابن البزار الكردي، صاحب الفتاوى البزازية المتوفى سنة «٨٢٨هـ - ١٤٢٣م» من عقد فصل لصفة الإمام في التوراة.

وقلما نجد كتابا في مناقب الأئمة إلا وفيه باب لما رأى الإمام المترجم له في المنام وما رثى له .

نعم لكل ذلك وزنه ودلالته في نظر الباحث، لكن التقصى لهذه المقالات في مصادرها، والمقارنة بين رواياتها المختلفة، واعتبار حجج المثبتين لها والمزيفين - مما لا يدخل في غرضنا ولا يتسع له المقام .

غرضنا من هذا البحث أن ندرس ما يتعلق بأثر الشافعى في تكوين العلم الإسلامى .

ولما كان وصف الأثر العلمى للإمام يستدعى تصوير شخصيته التى صدر عنها هذا الأثر، فإنى أجعل هذا البحث قسمين :

أ - ما يتعلق بالشافعى فى خاصة نفسه من نشأته وسيرته .

ب - ما يتعلق بأثر الشافعى فى وضع علم «أصول الفقه» .

وأتناولهما على هذا الترتيب .



نشأة الشافعي وسيرته

يقول أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري المالكي المتوفى سنة ٤٦٣هـ في كتابه «الانتقاء» في فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء: مالك، والشافعي، وأبي حنيفة رضي الله عنهم: «لا خلاف علمته بين أهل العلم والمعرفة بأيام الناس من أهل السير والعلم بالخبر والمعرفة بأنساب قريش وغيرها من العرب، وأهل الحديث والفقهاء، أن الفقيه الشافعي رضي الله عنه هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب ابن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة. ويجتمع مع النبي ﷺ في عبد مناف ابن قصي، والنبي ﷺ «محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف».

والشافعي محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع، وإلى شافع ينسب، وقد تقدم أنه شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف بن قصي.

فالنبي ﷺ هاشمي، والشافعي مطلبى، وهاشم والمطلب أخوان ابنا عبد مناف، ولعبد مناف أربعة بنون: هاشم والمطلب ونوفل وعبد شمس - (ص ٦٦). وهذا الذي لم يكن يعرف فيه ابن عبد البر خلافا من نسب الشافعي قد حدث فيه الخلاف.

قال فخر الدين محمد بن عمر الرازي المتوفى سنة ٦٠٦هـ - ١٢٠٩م

في كتابه في مناقب الإمام الشافعي:

«وطعن الجرجاني، وهو واحد من فقهاء الحنفية، في هذا النسب، وقال: إن أصحاب مالك لا يسلمون أن نسب الشافعي رضي الله تعالى عنه من قريش، بل يزعمون أن شافعا كان مولى لأبي لهب فطلب من عمر أن يجعله من موالى قريش فامتنع، فطلب من عثمان ذلك ففعل، فعلى هذا التقدير يكون الشافعي رضي الله تعالى عنه من الموالى لا من قريش». ص ٥.

وعرض الرازي للرد على هذه الدعوى بما لا نرى حاجة للإطالة فيه، ما دام صاحب اطعن يعزوه إلى أصحاب مالك، وقد نقلنا عن إمام من أئمة المالكية ما ينقض هذه الدعوى التي يقول في أمرها الرازي: «واعلم أن الجرجاني إنما أقدم على هذا البهتان لأن الناس اتفقوا على أن أبا حنيفة كان من الموالى، إلا أنهم اختلفوا في أنه كان من موالى العتاقة أو من موالى الخلف والنصرة، وطال كلامهم في هذا الباب. وأراد أن يقابل ذلك بمثل هذا البهت، وما مثله فيه إلا كما قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة] ص ٧ و ٨.

وقد يكون أصل هذه الحكاية ما ذكره الخطيب البغدادي في ترجمته للشافعي، من أن أم شافع أم ولد.

فالشافعي من جهة أبيه قرشي مطلبى، ليس في ذلك نزاع يقام له وزن، وإن كانت أم جده ليست من العرب.

وقد ذكر الكثيرون ممن ترجم للشافعي: أن جده السائب أسلم يوم بدر، وكان صاحب راية بني هاشم مع المشركين، فأسر ففدى نفسه وأسلم. وروى أنه اشتكى فقال عمر: اذهبوا بنا نعود السائب بن عبيد فإنه من قريش. وقال النبي ﷺ: حين أتى به وبعمه العباس: «هذا أخي».

أما ابنه شافع فلقى النبي وهو مترعرع.

فالسائب بن عبيد صحابي، وابنه شافع صحابي، وأخوه عبد الله بن السائب والى مكة صحابي.

وروى ابن حجر العسقلاني الشافعي المتوفى سنة «٨٥٢هـ - ١٤٤٨م» في كتابه «الإصابة في تمييز الصحابة» عند الكلام على عبد يزيد بن هاشم بن المطلب، روايات قال على أثرها:

«وعلى هذا فيكون في النسب أربعة أنفس في نسق من الصحابة: عبد يزيد، وولده عبيد، وولده السائب بن عبيد، وولده شافع بن السائب كان واليا لمكة.

وقال ابن حجر العسقلاني في كتابه «توالي التأسيس بمعالي ابن إدريس»: «وأما عثمان بن شافع فعاش إلى خلافة أبي العباس السفاح. وله ذكر في قصة بني المطلب لما أراد السفاح إخراجهم من الخمس وإفراده لبني هاشم، فقام عثمان في ذلك حتى رده على ما كان عليه في زمن النبي ﷺ». ص ٤٥.

وذكر ابن عبد البر، فيمن أخذ عن الشافعي علمه من أهل مكة، أبا إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن العباس بن عثمان بن شافع، قال: «وهو ابن عمه، وروى أيضاً عن ابن عيينة وغيره، وكان ثقة حافظاً للحديث ولم ينتشر عنه كبير شيء في الفقه، وكان منشؤه بمكة، وتوفى بها سنة سبع وثلاثين ومائتين، وحدث عن جماعة». ص ١٠٤.

ولسنا نعرف من أمر إدريس والد الشافعي إلا أنه كان رجلاً حجازياً

قليل ذات اليد، وأنه خرج مهاجرا من المدينة حين ظهر فيها بعض ما يكرهه، أو خرج من مكة إلى الشام لحاجة، في رواية أخرى، وأقام بغزة أو بعسقلان من بلاد فلسطين، ثم مات بعد مولد الشافعي بقليل.

أما أم الشافعي فهي أزدية في أرجح الروايات، وهي الرواية المشهورة المعزوة إلى الإمام نفسه. وذكر بعض المؤرخين أن كنيته «أم حبيبة الأزدية».

ونقل بعض أصحاب التراجم أن أم الشافعي هي فاطمة بنت عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

وقيل: فاطمة بنت عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي. وقالوا: إنهم لا يعلمون هاشميا ولدته هاشمية إلا علي بن أبي طالب والشافعي.

ورجح هذا القول ابن السبكي في كتاب «طبقات الشافعية الكبرى». لكن الفخر الرازي يرى: أن هذا القول شاذ. ويقول ابن حجر العسقلاني: إنه لم يثبت، ويرده كلام الشافعي نفسه. قال ابن السبكي: «ولله درها، من أي قبيلة كانت!».

قال ابن حجر: «ومن ظريف ما يحكى عن أم الشافعي من الحدق، أنها شهدت عند قاضي مكة هي وأخرى مع رجل، فأراد القاضي أن يفرق بين المرأتين، فقالت له أم الشافعي: ليس لك ذلك؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿... أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى...﴾ [البقرة]. فرجع القاضي لها في ذلك. وهذا تفريع غريب واستنباط قوى».

ولو أن أم الشافعي كانت بهذه المثابة من دقة التفريع وقوة الاستنباط

العرف التاريخ على الأقل اسمها، وعرف أين وافاها حمامها وفي أى زمن (١).

هذه السيدة التى يختلفون فى نسبها ويختلفون فى اسمها هى التى كفلت طفلها يتيما غريبا فقيرا، ولم تزل ترعاه بعائتها وتتولاه بهديها حتى أصبح بين المسلمين إمامًا.

خرج إدريس بن العباس والد الشافعى من مكة مهاجرا، يفر من الظلم، أو يفر من الفقر، أو يفر من كليهما، وقد يكون فى طريقه إلى فلسطين أقام فى المدينة زمنا، فقال بعض الرواة: إن هجرته كانت من المدينة ثم نزل فى غزة أو فى عسقلان - وهما ثغران من ثغور فلسطين متجاوران، وعسقلان هى المدينة - وأقام هناك مع زوجه التى وضعت له طفلا ذكرا لم يكد يتنسم الحياة حتى أدرك الموت أباه.

هذا مولد الشافعى، ولا خلاف بين الرواة فى أن الشافعى ولد «سنة ١٥٠هـ»، وهى السنة التى مات فيها أبو حنيفة على الصحيح، كما ذكر ابن حجر وغيره (٢).

(١) فى كتاب «الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة» تأليف شمس الدين محمد بن الزيات: «ويقولون (عن قبر من القيور) به أم الإمام الشافعى وليس بصحيح فإنها بمكة. قال المؤلف عفا الله عنه: دفنت فاطمة أم الإمام الشافعى بمكة. وهو الأصح».

(٢) وفى كتاب مرآة الجنان وعبرة اليقظان لأبى محمد عبد الله بن أسعد بن على بن سليمان عفيف الدين اليافعى الشافعى اليمنى ثم المكى المتوفى سنة ٧٦٨هـ:

«وقلت: وبيننا وبين الحنفية مقالة على سبيل المزاح، فهم يقولون: إمامكم كان مخفيا حتى ذهب إمامنا، ونحن نقول لما ظهر إمامنا هرب إمامكم». ج ٢ ص ٢٥. وهكذا يمزح المتفكهون.

والمروى عن الشافعى: أنه قال: إنه حمل إلى مكة وهو ابن سنتين، من غزة أو عسقلان.

وفى كتاب «معجم الأدباء» لياقوت: «وفى رواية أن الشافعى قال: ولدت باليمن فخافت أمى على الضيعة، فحملتنى إلى مكة وأنا يومئذ ابن عشر أو شبيه ذلك. وتأويل بعضهم قوله «باليمن» بأرض أهلها وسكانها قبائل اليمن، وبلاد غزة وعسقلان كلها من قبائل اليمن ويطونها.

قلت: وهذا عندى تأويل حسن إن صحت الرواية، وإلا فلا شك أنه ولد بغزة وانتقل إلى عسقلان إلى أن ترعرع». ج ٦ ص ٣٦٨.

ويقول ابن حجر فى «توالى التأسيس» ص ٤٩: «والذى يجمع الأقوال أنه ولد بغزة عسقلان، ولما بلغ سنتين حولته أمه إلى الحجاز ودخلت به إلى قومها وهم من أهل اليمن، لأنها كانت أزدية، فنزلت عندهم، فلما بلغ عشرا خافت على نسه الشريف أن ينسى ويضيع، فحوّلتها إلى مكة».

وليس من رأى التوفيق بين الروايات المتضاربة قوّبها وضعيفها على هذا الوجه، فتلک طريقة ليست من التمحيص التاريخى فى شىء، بل يجب تخير الروايات الصحيحة السند، التى يرجحها ما يحفّ بها من القرائن. والذى تدل عليه الروايات الراجحة أن الشافعى ولد بغزة ومات فيها أبوه كما مات بها من قبل هاشم جد النبى عليه السلام، ثم حملته أمه إلى عسقلان وهى من غزة على فرسخين أو أقل. وكان يربط بها المسلمون لحراسة الثغر منها. وكان يقال لها: «عروس الشام». وفى كتاب «أحسن التقاسيم» للمقدسى المعروف بالبشارى: «أن خيرها دافق، والعيش بها رافق».

وكل هذه الاعتبارات جدية بأن تجعل الأيم الفقيرة تختارها سكنا لها ولطفها اليتيم الغريب.

فلما بلغ الطفل ستين وترعرع وأصبح يحتمل السفر حملته أمه إلى مكة؛ لينشأ بين قومه من قريش، ولعلها كانت تريد أن تستعين على تكاليف العيش بما ينال الطفل من سهم ذوى القربى، باعتباراه مطلبيا^(١).

(١) ويظهر أن أم الشافعى كانت ترى أن تنشئه على الاعتزاز بنسبه والشعور بقوميته، وقد نشأ الشافعى غير خلو من عذد النزعة حتى لقد اتهم بالتشنيح. ويقول صاحب الفهرست: وكان الشافعى شديداً فى التشيع، وذكر له رجل مسألة فأجاب فيها، فقال له: خالفت على بن أبى طالب رضى الله عنه فقال له: أثبت لى هذا عن على بن أبى طالب حتى أضع خدى على التراب وأقول قد أخطأت وأرجع عن قولى إلى قوله. وحضر ذات يوم مجلسا فيه بعض الطالبين فقال: لا أتكلم فى مجلس بحضرة أحدهم وهم أحق بالكلام ولهم الرياسة والفضل. ص ٢٧٩.

وذكر ابن حجر فى رواية أن الشافعى كان يقول: على بن أبى طالب ابن عمى وابن خالتي. فأشار الشافعى بذلك إلى أن أم جده الأعلى السائب بن عبيد، «الشفاء» بنت الأرقم بن هاشم بن عبد مناف، وأمها «خلدة» بنت أسد بن هاشم أخت «فاطمة» بنت أسد والدة على. ففاطمة أم على بن أبى طالب خالة إحدى جدات الشافعى، فأطلق عليها خالته مجازاً. (ص ٤٦).

وفى كتاب الانتقاء لابن عبد البر: سوقيل للشافعى: إن فيك بعض التشيع. قال: وكيف؟ قالوا: ذلك لأنك تظهر حب آل محمد. فقال: يا قوم ألم يقل رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين» وقال: «إن أوليائى من عترتى المتقون» فإذا كان واجبا على أن أحب قرابتي وذوى رحمتى إذا كانوا من المتقين. أليس من الدين أن أحب قرابة رسول الله ﷺ إذا كانوا من المتقين. لأنه كان يحب قرابته وابنه. وله أبيات منها:

(إن كان رفضا حب آل محمد فليشهد الثقلان أنى رافضى). ص ٩١
ونقل الرازى: أن رجلا قال لابن حنبل: يا أبا عبد الله إن يحيى بن معين وأبا عبيدة=

على أن حظ الطفل من خمس الغنائم لم يكن ليرفقه من عيشه فنشأ في قلة من العيش، وضيق حال. قال الرازي:

«وذكروا أن الشافعي رضى الله عنه كان في أول الزمان فقيرا، ولما سلوه إلى المكتب ما كانوا يجدون أجرة المعلم، وكان المعلم يقصر في التعليم إلا أن المعلم كلما علم صبيا شيئا كان الشافعي رضى الله عنه يتلقف ذلك الكلام، ثم إذا قام المعلم من مكانه أخذ الشافعي رضى الله عنه يعلم الصبيان تلك الأشياء، فنظر المعلم فرأى الشافعي رضى الله عنه يكفيه من أمر الصبيان أكثر من الأجرة التي يطمع بها منه، فترك طلب الأجرة واستمرت هذه الأحوال حتى تعلم القرآن كله لسبع سنين - ص ١٥ و١٦ (١).

=ينسب الشافعي إلى التشيع.. فقال أحمد: لا أدري ما يقولان، والله ما رأينا منه إلا خيرا. ثم قال لمن حوله: اعلموا أن الرجل من أهل العلم إذا منحه الله تعالى شيئا وحرّم قرناه وأشكاله حسدوه فرموه بما ليس فيه، وبثت هذه الخصلة في أهل العلم. ص ٣٤.

وإذا صح أن الشافعي كان لا يخلو من تشيع فهو لم يكن مسرفا ولا متعصبا، وليس أدل على ذلك من أن زوجه كانت عثمانية.

(١) وقد كان الشافعي يجيد حفظ القرآن ويكثر من تلاوته وتدبره، وروى عن الربيع أن الشافعي كان يختم القرآن في كل شهر ثلاثين ختمة، وفي شهر رمضان ستين ختمة. ختمة بالليل، وختمة بالنهار. الرازي ص ١٢٤.

ويروى أنه كما يقرئ الناس في المسجد الحرام وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وكان حسن الصوت في القراءة، وأخرج ابن عدى من طريق أحمد بن صالح قال: كان الشافعي إذا تكلم كأن صوته صنج أو جرس من حسن صوته. وأخرج الحاكم من طريق بحر بن نصر قال: كنا إذا أردنا أن نبكى قلنا: اذهبوا قوموا إلى هذا الفتى المطلبى الذى يقرأ القرآن، فإذا أتيناه استفتح القرآن حتى يساقط الناس بين يديه ويكثر عجبهم بالبكاء من حسن صوته، فإذا رأى ذلك أمسك.

=

ويروى عن الشافعي: أنه كان يحدث عن طفولته فيقول: «وكانت نهمتي في شيئين؛ في الرمي، وطلب العلم. فنلت من الرمي حتى كنت أصيب من عشرة عشرة». وفي رواية من عشرة تسعة. وسكت عن العلم، فقال له بعض من كان يستمع إليه: أنت والله في العلم أكثر منك في الرمي. ويروى عنه أيضاً: أنه قال: كنت ألزم الرمي حتى كان الطبيب يقول لي: «أخاف أن يصيبك السل من كثرة وقوفك في الحر». تاريخ بغداد ج ١ ص ٥٩، ٦٠.

ويظهر: أن حب الرماية لم ينزعه من بين جوانب الشافعي جلال السن وجلال الإمامة.

«عن المزني قال: كنت عند الشافعي فمر بهدف، فإذا رجل يرمى بقوس عربية، فوقف عليه الشافعي وكان حسن الرمي فأصاب سهاماً، فقال له الشافعي: أحسنت. وبرك عليه. قال لي: ما معك؟ فقلت: ثلاثة دنانير، فقال: «أعطه إياها واعدرنى إذ لم يحضرني غيرها». توالي التأسيس - ص ٦٧(١).

= وكان واسع العلم بالتفسير حتى قال يونس بن عبد الأعلى: كان الشافعي إذا أخذ في التفسير كأنه شاهد التنزيل، وكان الشافعي يقول: نظرت بين دفتي المصحف فعرفت مراد الله تعالى من جميع ما فيه إلا حرفين أشكلا على، قال الراوي: الأول نسيته، والثاني قوله تعالى: «وقد خاب من دساها» قال: فإني لم أجده في لغة العرب، ثم قرأت لمقاتل بن سليمان قال: إنه لغة السودان فإن «دساها» أغواها. الرازي ص ١٢٤، ١٢٥ وابن حجر ص ٦٠.

(١) ويظهر أن الشافعي كان يعرف جياذ الخليل، ولعله كان من فرسانها. وفي كتاب «مفتاح السعادة» لطاش كبرى زاده المتوفى سنة ٩٦٢هـ:

قال الشافعي: لما ختمت القرآن دخلت المسجد أجالس العلماء، وأحفظ

«روى عن الشافعي أنه قال: رأيت على باب مالك كراعا من أفراس خراسان ويغال مصر ما رأيت أحسن منه، فقلت له: ما أحسنه! فقال: هو هدية مني إليك يا أبا عبد الله. قلت: دع لنفسك منها دابة تركبها. فقال: أنا أستحي من الله تعالى أن أطأ تربة فيها رسول الله ﷺ بحافر دابة. ولم ير مالك راكبا بالمدينة قط. ج ٢ ص ٨٧.

وكان الشافعي متأثرا في خلقه وفي خلقه بالرياضة البدنية التي شغف بها منذ الصغر، فكان جسمه جسم الرياضيين، وكان خلقه خلق الرياضيين. ذكر زين الدين عمر بن الوردي أن ابن صلاح، نعت الشافعي لبعض ملوك الشام فقال: كان، رضى الله عنه وجزاه الخير، طويلا سائل الخدين قليل لحم الوجه طويل العنق، طويل القصب، أسمر خفيف العارضين، يخضب لحيته بالحناء حمراء قانية، حسن الصوت حسن السميت، عظيم العقل حسن الوجه حسن الخلق، مهيبا فصيحاً من أذرب الناس لسانا، إذا أخرج لسانه بلغ أنفه. ج ١ ص ٢١٥.

ويظهر أن الشافعي كان لا يحب السمن ولا يحسن ظنه في أهله. ويروى: أنه كان يقول: ما أفلح سمين إلا محمد بن الحسن. وتلك مقالة رجل رياضى. ومن أخلاق الرياضيين العزة والاحتمال والقصد والبر والصيانة. وقد كان الشافعي عزيزا صبوراً مقتصداً خيراً.

وروى عن الربيع أنه قال: قال عبد الله بن الحكم للشافعي: إذا أردت أن تسكن البلد، يعنى مصر، فليكن لك قوت سنة ومجلس من السلطان تتعزز به. فقال له الشافعي: يا أبا محمد من لم تعزه التقوى فلا عز له، وقد ولدت بغزة وريت بالحجاز وما عندنا قوت ليلة وما بتنا جياعا قط.

ومما يتصل بذلك ما روى أن الربيع سئل كيف كان لباس الشافعي؟ قال: كان مقتصداً فيه: يلبس الثياب الرقيقة من الكتان والقطن البغدادي، وكان ربما لبس قلنسوة ليست مشرفة جداً، ويلبس كثيرا العمامة والخف، وكان لا يأتي عليه يوم لا يتصدق، ويتصدق بالليل ولا سيما في رمضان، ويتفقد الفقراء والضعفاء. ابن حجر ص ٦٧، ٦٨.

وكان شيوخ مكة يصفون الشافعي من أول صغره بالذكاء والعقل والصيانة، ويقولون: لم تعرف له صغيرة. كتاب مرآة الجنان ج ٢ ص ٢١.

الحديث والمسألة، وكان منزلنا بمكة في شعب الحيف، وكنت فقيرا بحيث ما أملك ما أشتري به القراطيس، فكنت آخذ العظم أكتب فيه، وأستوهب الظهور من أهل الديوان وأكتب فيها» الرازي - ص ١٦ .

وكان الشافعي في أول أمره يطلب الشعر وأيام الناس والأدب. قال الشافعي: «وخرجت من مكة - يعنى بعد أن بلغ - قال: فلزمت هذيلة بالبادية أتعلّم كلامها وآخذ اللغة. وكانت أفصح العرب^(١)». ابن حجر ص ٥٠ .

(١) ويقول الرازي: اعلم أن المتقدمين من أئمة اللغة والمتأخرين منهم، اعترفوا للشافعي بالتقدم في علم اللغة وأقروا له بكمال الفصاحة. نقل عن الأصمعي أنه قال: قرأت ديوان الهذليين على شاب من شباب قریش يقال له «محمد بن إدريس الشافعي».

وحكى ابن دريد عن أبي حاتم السجستاني عن الأصمعي أنه قال: قرأت شعر الشنفرى على محمد بن إدريس. ثم نقل الرازي شهادة المازنى والجاحظ وثلعب وأبى منصور الأزهرى وأبى سليمان الخطابى ونفطويه والزمخشري للشافعي، وقال بعد أن نقل كلام الزمخشري فى الكشاف، الذى يرجح به رأى الشافعي فى تفسير بعض الآيات: ما نصه:

هذا كلام صاحب الكشاف، نقلته بلفظه. وهو صريح بأن نظر الشافعي رضى الله عنه فى هذه الآية أتم، ووقوفه على العربية أكمل. مع أن صاحب الكشاف كان على مذهب أبى حنيفة، فكانت شهادته للشافعي بالتقدم فى هذا العلم دليلا على أن الأمر كذلك. الرازي، ص ١٥٣ إلى ١٥٦ .

وفى معجم الأدباء لياقوت نقلا عن الأبرى، قال: وسمعت ابن هشام يقول: الشافعي كلامه لغة يحتج به. وحدثت عن محمد بن الحسن الزعفراني قال: كاتن قوم من أهل العربية يختلفون إلى مجلس الشافعي معنا، ويجلسون ناحية، قال: فقلت لرجل من رؤسائهم: إنكم لا تتعاطون العلم فلم تختلفون معنا؟ قالوا: نسمع لغة الشافعي... وحدث ابن خزيمة قال: سمعت يونس بن عبد الأعلى يقول: كان الشافعي إذا أخذ

ثم توجه الشافعي لى الفقه يدرسه . وقد اختلفت الروايات فى سبب توجهه إلى الفقه ، وتكاد ترجع كلها إلى نصح الناصحين له : أن يصرف جهده وذكاءه فى علم تكمل به سيادته من غير خطر على دينه . ولم يكن يومئذ إلا الفقه سبيلا إلى ذلك .

ويعبر عن روح الوقت من تلك الناحية ما رواه الخطيب البغدادي فى

فى العرية قلت : هو بهذا أعلم ، وإذ تكلم فى الشعر وإنشاده قلت : هو بهذا أعلم ، وإذا تكلم فى الفقه قلت : هو بهذا أعلم . ج ٢ ص ٢٧٩ و ٣٨٠ .

وذكر البغدادي فى تاريخ بغداد عن أبى الوليد بن أبى الجارود أنه كان يقول : ما رأيت أحداً إلا وكتبه أكثر من مشاهدته إلا الشافعي ، فإن لسانه كان أكثر من كتابه . ج ٢ ص ٦٧ .

وقد رورا للشافعي أشعاراً يكفى فى الحكم عليها أن نذكر ما ذكره الرازى من أن الشافعي كان يقول :

لا يكاد وجود شعر القرشين ؛ لأن الله تعالى قال لنبىه ﷺ «وما علمناه الشعر وما ينبغي له» ولا يكاد وجود خط القرشى ؛ لأن النبى ﷺ ما كان يكتب بدليل قوله تعالى «ولا تحطه يمينك» . ص ١٩٥ .

على أنه يقع للشافعي فيما يروى له من الشعر ما يكون جيداً كقوله :
تعاظمنى ذنبى فلما قرنته بعفوك ربي كان عفوك أعظما
وقوله :

ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع

وقوله :

لا تأس فى الدنيا على فائت وعندك الإسلام والعافية

وقوله :

وأحق خلق الله بالهم امرؤ ذو همة يبلى بعيش ضيق

وقوله :

أكل العقاب بقوة جيف الفلا وجنى الذباب الشهد وهو ضعيف

تاريخه عن أبى يوسف قال: قال أبو حنيفة: لما أردت طلب العلم جعلت
 أتخير العلوم وأسأل عن عواقبها، فقيل لى: تعلم القرآن. فقلت: إذا تعلمت
 القرآن وحفظته فما يكون آخره؟ قالوا: تجلس فى المسجد ويقرأ عليك الصبيان
 والأحداث، ثم لا تلبث أن يخرج فيهم من هو أحفظ منك أو يساويك فى
 الحفظ، فتذهب رياستك. قلت: فإن سمعت الحديث وكتبته حتى لم يكن فى
 الدنيا أحفظ منى؟ قالوا: إذا كبرت وضُعت حدث واجتمع عليك الأحداث
 والصبيان، ثم لم تأمن أن تغلط فيرموك بالكذب، فيصير عاراً عليك فى
 عَقْبِكَ. فقلت: لا حاجة لى فى هذا. ثم قلت: أتعلم النحو. فقلت: إذا
 تعلمت النحو والعربية ما يكون آخر أمرى؟ قالوا: تقعد معلماً وأكثر رزقك
 ديناران إلى الثلاثة. قلت وهذا لا عاقبة له. قلت: فإن نظرت فى الشعر فلم
 يكن أحد أشعر منى، ما يكون من أمرى؟ قالوا: تمدح هذا فيهب لك
 ويحملك على دابة أو يخلع عليك خلعة، وإن حرمك هجوته فصرت تقذف
 المحصنات. فقلت: لا حاجة لى فى هذا. قلت: فإن نظرت فى الكلام فما
 يكون آخره؟ قالوا: لا يسلم من نظر فى الكلام من شنعات الكلام فيرمى
 بالزندقة. فإما أن يؤخذ فيقتل، وإما أن يسلم فيكون مذموماً. قلت: فإن
 تعلمت الفقه؟ قالوا: تسأل وتفتى الناس وتُطلب للقضاء وإن كنت شاباً.
 قلت: ليس فى العلوم شىء أنفع من هذا، فلزمت الفقه وتعلمته. تبييض
 الصحيفة ص ١١ و ١٢.

وتفقه الشافعى أول أمره على «مسلم بن خالد الزنجى» مفتى مكة سنة
 ١٨٠هـ - ٧٩٦م مولى بنى مخزوم. وقد اختلف النقاد فى أمر مسلم فقيل:
 ثقة، وقيل: ضعيف، وقيل: ليس بشىء، وقال البخارى: منكر الحديث.

ونقل أنه كان يرى القدر. ولعل هذا هو سر تضعيفه.

ويقولون: إن مسلم بن خالد الزنجي قال للشافعي: أفت يا أبا عبد الله

فقد آن لك أن تفتي. وكان الشافعي حينئذ دون عشرين سنة.

وأخذ الشافعي في مكة عن: «سفيان بن عيينة الهلالي» المتوفى سنة

١٩٨هـ - ٨١٣م أحد الثقات الأعلام، وروى عن بعضهم: أنه اختلط سنة

١٩٧هـ - ٨١٢م.

ثم رحل الشافعي إلى المدينة ليطلب العلم على «مالك بن أنس» فقراً

الموطأ على مالك بعد أن حفظه عن ظهر قلب في مدة يسيرة، وأقام بالمدينة

إلى أن توفي «مالك» سنة ١٧٩هـ - ٧٩٥م.

وخبِر رحلته إلى مالك مروى على وجوه مختلفة، تتفق كلها في زن

الشافعي كان فقيراً لا يملك نفقة السفر على فرط شوقه إلى الأخذ عن إمام

دار الهجرة.

ثم يسّر الله له أسباب الرحلة، وأحسن مالك لقاءه لما تفرس من نجابته

وفضله.

وتلقى الشافعي في المدينة عن غير مالك كإبراهيم بن أبي يحيى الذي

يقول الرازي: اتفقوا على أنه كان معتزلياً.

وخرج الشافعي إلى اليمن بعد موت مالك.

«قال الشافعي: سلما مات مالك كنت فقيراً، فاتفق أن والى اليمن قدم

المدينة فكلّمه بعض القرشيين في أن أصحابه، فذهبت معه واستعملني في

أعمال كثيرة، وحمدت فيها، والناس أثنوا عليها». الرازي ص ١٨.

وكادت الولاية تشغل الشافعي عن العلم حتى نبهه بعض شيوخه فانتبه.

قال الشافعي: كنت على عملٍ باليمن، واجتهدت في الخير والبعد عن الشر، ثم قدمت إلى المدينة فلقيت ابن أبي يحيى وكنت أجالسه، فقال لي: تجالسوننا وتسمعون منا، فإذا ظهر لأحدكم شيء دخل فيه.

ثم لقيت ابن عيينة فقال: قد بلغنا ولايتك فما أحسن ما انتشر عنك، وأدبت كل الذي لله عليك، ولا تعد.

قال الشافعي رضى الله عنه: موعظة ابن عيينة أبلغ مما صنع ابن أبي يحيى - الرازي ص ٢٠.

وقد أخذ الشافعي عن جماعة من أهل اليمن منهم مطرف بن مازن الصنعاني المتوفى سنة ١٩١هـ - ٨٠٦م. وقد كذبه يحيى بن معين، وقال النسائي: ليس بثقة. وقال غيره كان قاضي صنعاء وكان رجلا صالحا.

وعمر بن أبي سلمة المتوفى سنة ٢١٤هـ - ٨٢٩م وهو صاحب الأوزاعي:

ويقولون: إن الشافعي جمع كتب الفراسة من اليمن واشتغل بها حتى مهر فيها:

ارتفع شأن الشافعي في اليمن، «ثم إن الحساد سعوا به إلى هارون الرشيد، وكان باليمن واحد من قواده فكتب إليه يخوفه من العلويين، وذكر في كتابه: أن معهم رجلا يقال له محمد بن إدريس الشافعي يعمل بلسانه ما لا يقدر المقاتل عليه بسيف، فإن أردت أن تبقى الحجاز عليك فاحملهم إليك.

فبعث الرشيد إلى اليمن، وحملوا الشافعي مع العلوية إلى العراق».
الرازي ص ١٨ .

وتلك هي المحنة التي اقتضت دخول الشافعي العراق. وفي حديث هذه المحنة اختلاف كبير وقد يكون أسلم هذه الروايات من الحشو وأدناها إلى الاعتدال والقصد، ما رواه ابن عبد البر في كتاب «الانتقاء» قال:

«حمل الشافعي من الحجاز، مع قوم من العلوية تسعة وهو العاشر، إلى بغداد، وكان الرشيد بالرقعة، فحملوا من بغداد إليه وأدخلوا عليه ومعه قاضيه: «محمد بن الحسن الشيباني» وكان صديقاً للشافعي، وأحد الذين جالسوه في العلم وأخذوا عنه^(١)، فلما بلغه أن الشافعي في القوم الذين أخذوا من قريش بالحجاز واتهموا بالطعن على الرشيد والسعي عليه، اغتم لذلك غماً شديداً؛ وراعى وقت دخولهم على الرشيد. قال: فلما أدخلوا على الرشيد سألهم وأمر بضرب أعناقهم. فضربت أعناقهم إلى أن بقي حدث علوي من أهل المدينة، وأنا، فقال للعلوي: أنت الخارج علينا والزاعم أنني لا أصلح للخلافة؟ فقال العلوي: لن أدعى ذلك أو أقوله. قال: فأمر بضرب عنقه، فقال العلوي: إن كان لا بد من قتلي فأنظرني أكتب إلى أمي بالمدينة، فهي عجوز لم تعلم بخبري. فأمر بقتله فقتل.

ثم قدمت ومحمد بن الحسن جالس معه، فقال لي مثل ما قال للفتى، فقلت: يا أمير المؤمنين لست بطالبي ولا علوي، وإنما أدخلت في القوم بغياً على، وإنما أنا رجل من بني المطلب بن عبد مناف بن قصي، ولي مع ذلك حظ من العلم والفقہ، والقاضي يعيرف ذلك، وأنا محمد بن إدريس بن

(١) لعل في العبارة تحريفاً فإن المعروف أن الشافعي هو الذي أخذ عن محمد.

العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف. فقال لى: أنت محمد بن إدريس؟ فقلت: نعم يا أمير المؤمنين. قال: ما ذكرك لى محمد بن الحسن؟ ثم عطف على محمد بن الحسن فقال: يا محمد، ما يقول هذا هو كما يقوله؟ قال: بلى، وله من العلم محل كبير، وليس الذى رفع عليه من شأنه. قال: فخذه إليك حتى أنظر فى أمره. فأخذنى محمد وكان سبب خلاصى لما أراد الله عز وجل منه. ص ٩٧، ٩٨.

ويقول ابن حجر فى كتاب «توالى التأسيس» ص ٧١: «وأما الرحلة المنسوبة إلى الشافعى، المروية من طريق عبد الله بن محمد البلوى فقد أخرجها الأبرى، والبيهقى، وغيرهما مطولة ومختصرة، وساقها الفخر الرازى فى مناقب الشافعى بغير إسناد معتمداً عليها، وهى مكذوبة، وغالب ما فيها موضوع، وبعضها ملفق من روايات ملفقة، وأوضح ما فيها من الكذب، قوله فيها: إن أبا يوسف ومحمد بن الحسن حرّضا الرشيد على قتل الشافعى، وهذا باطل من وجهين: أحدهما - أن أبا يوسف لما دخل الشافعى ببغداد وكان مات لم يجتمع به الشافعى.

والثانى - أنهما كانا أتقى لله من أن يسعيا فى قتل رجل مسلم لا سيما وقد اشتهر بالعلم؛ وليس له إليهما ذنب إلا الحسد على ما آتاه الله من العلم. هذا ما لا يظن بهما، وإن منصبهما وجلالتهما، وما اشتهر من دينهما ليصد عن ذلك.

والذى تحرر لنا بالطرق الصحيحة: أن قدوم الشافعى ببغداد أول ما قدم كان سنة ١٨٤هـ - ٨٠٠م. وكان أبو يوسف قد مات قبل ذلك بستين، وأنه

لقى محمد بن الحسن فى تلك القدمة، وكان يعرفه قبل ذلك من الحجاز وأخذ عنه ولازمه.

ومن أخذ عنهم الشافعى فى العراق «وكيع بن الجراح بن مليح الرؤاسى أبو سفيان الكوفى الحافظ» المتوفى سنة ١٩٠هـ / ٨٠٥ - ٨٠٦م، و«حماد بن أسامة الهاشمى الكوفى» المتوفى سنة ٢١٠هـ - ٨٢٥م، و«عبد الوهاب بن عبد المجيد البصرى» المتوفى سنة ١٩٤هـ / ٨٠٩ - ٨١٠م. وقد قرأ الشافعى كتب «محمد بن الحسن الشيبانى» المتوفى سنة ١٨٩هـ / ٨٠٤ - ٨٠٥م ولازمه وأخذ عنه.

ولم نر فيما بين أيدينا من تراجم الشافعى ذكر مدة مقامه فى بغداد فى هذه القدمة.

وقدم الشافعى بعد ذلك إلى بغداد سنة ١٩٥هـ / ٨١٠ - ٨١١م فأقام سنتين واشتهرت جلالته الشافعى رحمه الله فى العراق وسار ذكره فى الآفاق وأذعن بفضلته الموافقون والمخالفون... وعكف عليه للاستفادة منه الصغار والكبار من الأئمة والأخبار من أهل الحديث والفقهاء وغيرهما، ورجع كثيرون منهم عن مذاهب كانوا عليه إلى مذهبه، وتمسكوا بطريقته، كأبى ثور وخلائق لا يحصون... وصنّف فى العراق كتابه القديم، ويسمى «كتاب الحجّة» ويرويه عنه أربعة من جلة أصحابه وهم: أحمد بن حنبل، وأبو ثور، والزعفرانى، والكرائيسى». شرح المهذب للنووى ج ١ ص ٩.

ثم خرج الشافعى إلى مكة وعاد إلى بغداد فى سنة ١٩٨هـ / ٨١٣ - ٨١٤م وأقام بها أشهراً، ثم إنه خرج إلى مصر فى هذه السنة كما فى معجم الأدباء. ويقول ياقوت فى موضع آخر: «ويقال إن الشافعى رضى الله عنه قدم

إلى مصر سنة ١٩٩هـ / ٨١٤ - ٨١٥م في أول خلافة المأمون، وكان سبب
قدومه إلى مصر أن العباس بن عبد الله بن العباس بن موسى بن عبد الله بن
العباس استصحبه فصحبه، وكان العباس هذا خليفة لأبيه على مصر». ج٦
ص ٣٩٤ (١).

وفي شرح المهذب: «وقال الربيع: قدم الشافعي (مصر) سنة مائتين.
ولعله قدم في آخر سنة تسع، جمعاً بين الروايتين.

(١) وأيسر معنى ذلك أن الشافعي إنما خرج إلى مصر لمجرد الرغبة في مصاحبة الوالي، فقد
كان يشترق إلى مصر من قبل، ورووا له في ذلك شعراً:

أرى النفس قد أضحت تتوق إلى مصر ومن دونها جوب الحزونة والوعر
ووالله ما أدرى اللخفص والغنى أساق إليها أم أساق إلى قبري؟

وروى هذا الشعر أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني المعروف بابن الفقيه في كتاب
البلدان المؤلف نحو سنة ٢٩٠هـ منسوباً إلى أبي نواس، فيكون الشافعي قد تمثل بها.

وقد يفهم سبب خروج الشافعي إلى مصر مما ذكره ابن البراز الكردي في مناقب المام
الأعظم أبي حنيفة على ما فيه من التحامل البين: عن الجارود بن معاوية قال: كان
الشافعي رضى الله عنه بالعراق يصنف الكتب وأصحاب محمد يكسرون عليه أقاويل
بالحجج، ويضعفون أقواله، وضيّقوا عليه. وأصحاب الحديث أيضاً لا يلتفتون إلى قوله،
ويرمون بالاعتزال، فلما لم يقدّم له بالعراق سوق خرج إلى مصر ولم يكن بها فقيه
معلوم فقام بها سوقه. ج ٢ ص ١٥٣.

وإذا كان الشافعي قد خرج إلى مصر يلتمس نشر مذهبه فهو إنما أراد أن يلتمس لآرائه
ميداناً جديداً بعد أن أدرك النصر في الحجاز والعراق.

وقال الربيع: سألت الشافعي عن أهل مصر فقلت: هم فرقان، فرقة مالت إلى قول
مالك وناضلت عليه، وفرقة مالت إلى قول أبي حنيفة وناضلت عليه، وفرقة مالت إلى
قول أبي حنيفة وناضلت عليه، فقال: أرجو أن أقدم مصر إن شاء الله فآتيهم بشيء
أشغلهم عن القولين جميعاً. قال الربيع: ففعل ذلك والله حين دخل مصر. ابن حجر
ص ٧٧.

وصنف كتبه الجديدة كلها بمصر، وسار ذكره في البلدان، وقصده الناس من الشام والعراق واليمن وسائر النواحي، للأخذ عنه وسماع كتبه الجديدة». ص ٩.

وفى ابن خلكان: «ثم عاد إلى بغداد سنة ثمان وتسعين ومائة فأقام بها شهرا ثم خرج إلى مصر، وكان وصوله إليها سنة تسع وتسعين ومائة وقيل إحدى ومائتين».

وأقام الشافعي بمصر إلى أن مات سنة ٢٠٤هـ و٨١٩ - ٨٢٠م^(١)، وكان في آخر عمره عليلا شديد العلة من البواسير، حتى قالوا: إن صدره أصبح ضيقا، وإنه كان يقول: إني لآتي الخطأ وأنا أعرفه. يعنى ترك الحمية.

وفى كتاب «توالي التأسيس» لابن حجر: «قلت: قد اشتهر أن سبب موت الشافعي: أن فتيان بن أبي السمح المالكي المصري وقعت بينه وبين الشافعي مناظرة، فبدرت من فتیان بادرة فرفعت إلى أمير مصر، فطلبه وعزّره، فحقد ذلك، فلقى الشافعي ليلاً فضربه بمفتاح حديد فشجّه فتمرض الشافعي منها إلى أن مات. ولم أر ذلك من وجه يعتمد». ص ٨٦.

لم تقتل الشافعي شجة «فتيان» المزعومة. إنما قتل الشافعي ما بذله من جهد عنيف في السنين الأربع التي أقامها بمصر، ما بين تأليف وتدريس ومناظرة، وسعي في بث مذهبه، ومدافعة كيد خصومه، هذا إلى مرضه المنهك، وقد كان في ذلك العهد مصابا بنزيف من الباسور.

(١) في كتاب التوفيقات الإلهامية لمحمد مختار باشا:

في ٤ من يناير سنة ٨٢٠ كانت وفاة الإمام محمد بن إدريس الملقب بالشافعي رضي الله عنه، وهو صاحب المذهب الشافعي، ولم يبلغ من العمر أكثر من ٥٤ سنة ودفن بالقرافة الصغرى. ص ١٠٢.

قال الربيع تلميذه: أقام الشافعي ههنا أربع سنين، فأملى ألفاً وخمسمائة ورقة، وخرج كتاب «الأم» ألفى ورقة، وكتاب «السنن»، وأشياء كثيرة، كلها في مدة أربع سنين، وكان عليلاً شديد العلة...». ابن حجر ص ٨٣.

وكان يلزم الاشتغال بالتدريس والإفادة في جامع عمرو.

وكان يجلس في حلقة إذا صلى الصبح، فيجيئه أهل القرآن فيسألونه، فإذا طلعت الشمس قاموا وجاء أهل الحديث فيسألونه عن معانيه وتفسيره، فإذا ارتفعت الشمس قاموا واستوت الحلقة للمناظرة والمذاكرة، فإذا ارتفع النهار تفرقوا وجاء أهل العربية والعروض والشعر والنحو، حتى يقرب انتصاف النهار، ثم ينصرف إلى منزله. ابن حجر ص ٦٢.

وأخرج أبو نعيم من طريق ابن حسين البصرى: سمعت طيباً نصربياً يقول: ورد الشافعي مصر فذاكرني بالطب حتى ظننت أنه لا يحسن غيره، فقلت له: أقرأ عليك شيئاً من كتاب أبقراط، فأشار إلى الجامع فقال: إن هؤلاء لا يتركونى. ابن حجر ص ٦٦.

وقد يكون الشافعي درس الطب فيما درسه من العلوم في العراق حينما جاءها أول مرة.

وقد يكون درس علم التنجيم أيضاً هناك، وإنهم ذكروا أن الشافعي اشتغل بعلوم التنجيم؛ وكل ذلك يدل على ما كان من شغف للإمام بالعلم كله.

وقد يكون هذا الجلوس المتوالى في الجامع من أسباب ما أصيب به الإمام من المرض.

وذكر الأستاذ مصطفى منير أدهم فى رسالته «رحلة الإمام الشافعى إلى مصر» أن أهل الإمام ذهبوا إلى الوالى فى صباح الليلة التى توفى فيها، وكان الوالى هو محمد بن السرى بن الحكم، وطلبوا إليه الحضور لتغسيل الإمام كما أوصى، فقال لهم الوالى: هل ترك الإمام ديناً؟ قالوا: نعم. فأمر الوالى بسداد ذلك الدين كله، ثم نظر إليهم وقال لهم: هذا معنى تغسيلي له. ص ٤١.

وإن صحت هذه القصة التى لم يذكر راويها^(١) لها إسناداً فهى تدل على أن الشافعى خرج من الدنيا فقيراً كما دخلها فقيراً.

ولسنا نشك فى أن الشافعى مات فقيراً، لكننا نشك فى أمر استدانته، فقد روى ابن حجر فى «توالى التأسيس» عن ابن أبى حاتم عن أبيه عن عمرو ابن سواد السرجى قال: قال لى الشافعى: أفلست ثلاث مرات فكنت أبيع قليلى وكثيرى حتى حلى ابنتى وزوجتى، ولم أستدن قط. ص ٦٧.

وتزوج الشافعى (حميدة) بنت نافع بن عبسة بن عمرو بن عثمان بن عفان، فولدت له «أبا عثمان محمداً» وكان قاضياً لمدينة حلب، (وفاطمة)، (وزينب).

(١) وقد عثرت على هذه الرواية فى كتاب (تاريخ مصر) المشهور (بيدائع الزهور فى وقائع الدهور) ولقظه. قيل: لما مرض الإمام الشافعى أوصى بأن لا يغسله إلا أمير البلد، فلما مات حضر محمد بن السرى أمير البلد، فقيل له: إن الإمام أوصى بأن لا يغسله إلا أنت، فقال: هل توفى الإمام وعليه دين؟ فقيل: نعم. فحسبوا ما عليه من الدين فإذا هو سبعون ألف درهم، فقضاها عنه محمد بن السرى أو قال: هذا غسلى إياه، وورثها كنى عن الدين الذى عليه لأقضيه عنه. ج ٣ - ص ٣٣.

الدراسات الفقهية إلى عهد الشافعي

كان التشريع في عهد النبي عليه السلام يقوم على الوحي: من الكتاب والسنة، وعلى الرأي من النبي ومن أهل النظر والاجتهاد من أصحابه، بدون تدقيق في تحديد معنى الرأي وتفصيل وجوهه، وبدون تنازع ولا شقاق بينهم. ومضى عهد النبي عليه السلام وجاء بعده عهد الخلفاء الراشدين من سنة ١١هـ - ٦٣٢م إلى سنة ٤٠هـ - ٦٦٠م وقد اتفق الصحابة في هذا العهد على استعمال القياس في الوقائع التي لا نص فيها من غير نكير من أحد منهم، وفي هذا العهد أخذت تبدو الصورة الأولى من صور الإجماع بما كان يركن إليه الأئمة من مشاوره أهل الفتوى من الصحابة، وكان أهل الفتوى من الصحابة يومئذ، وهم المعتبرون في الإجماع، قلة لا يتعذر تعرف الاتفاق بينهم في حكم من الأحكام.

ولم يكن يفتى من الصحابة إلا حملة القرآن الذين كتبوه وقرأوه وفهموا وجوه دلالاته وناسخه ومنسوخه، وكانوا يُسمَّون «القرءاء» لذلك، وتمييزاً لهم عن سائر الصحابة بهذا الوصف الغريب في أمة أمية - لا تقرأ ولا تكتب.

ثم كان عصر بني أمية من سنة ٤٠هـ - ٦٦٠م إلى سنة ١٣٢هـ - ٧٤٩م وتكاثر الممارسون للقراءة والكتابة من العرب، ودخلت في دين الله أمم ليست أمية، فلم يعد لفظ القرءاء نعتاً غريباً يصلح لتمييز أهل الفتوى ومن يؤخذ عنهم الدين، هنالك استعمل لفظ «العلم» للدلالة على حفظ القرآن ورواية السنن والآثار وسمى أهل هذا الشأن «العلماء» واستعمل لفظ «الفقه»

للدلالة على استنباط الأحكام الشرعية بالنظر العقلي فيما لم يرد فيه نص كتاب ولا سنة.

وسمى أهل هذا الشأن «الفقهاء» فإذا جمع امرؤ بين الصفتين جمع له اللفظان أو ما يرادفهما.

وفي طبقات ابن سعد: «كان ابن عمر جيد الحديث غير جيد الفقه، وكان زيد بن ثابت فقيهاً في الدين عالماً بالسنن».

وقد كان كثير من الصحابة والتابعين يكره كتاب العلم وتخليده في الصحف، كابن عباس، والشعبي، والنخعي، وقتادة، ومن ذهب مذهبهم وهؤلاء كلهم عرب طبعوا على الحفظ جبلة العرب.

قال ابن عبد البر: من كرة كتاب العلم إنما كرهه لوجهين:

أحدهما - ألا يتخذ مع القرآن كتاب يضاهي به، ولئلا يتكل الكاتب على ما يكتب فلا يحفظ فيقل الحفظ. (مختصر جامع بيان العلم ص ٣٤).

ولما انقرض عهد الصحابة ما بين تسعين ومائة من الهجرة وجاء عهد التابعين، انتقل أمر الفتيا والعلم بالأحكام إلى الموالى إلا قليلاً. «عن عطاء قال: دخلت على هشام بن عبد الملك فقال: هل لك علم بعلماء الأمصار؟ قلت: بلى. قال: فمن فقيه المدينة؟ قلت: «نافع» مولى ابن عمر، وفقيه مكة «عطاء بن رباح» المولى، وفقيه اليمن «طاوس» بن كيسان المولى، وفقيه الشام «مكحول» المولى، وفقيه الجزيرة «ميمون» بن مهران المولى، وفقيها البصرة «الحسن وابن سيرين» الموليان، وفقيه الكوفة «إبراهيم» النخعي العربي. قال هشام: لولا قولك عربى لكادت نفسى تخرج». مناقب الإمام الأعظم للبراز ج ١ - ص ٥٧.

عندئذ تضاءلت النزعة العربية إلى خطر التدوين وصارت كتابة العلم أمراً لازماً. «عن سعد بن إبراهيم قال: أمرنا عمر بن عبد العزيز المتوفى سنة ١٠١هـ - ٧٢٠م بجمع السنن فكتبناها دفترًا دفترًا فبعث إلى كل بلد له عليها سلطان دفترًا». مختصر جامع بيان العلم ص ٣٣.

وقد بدت مخايل نهضة في التشريع الإسلامي منذ ذلك العهد فحصل تدوين بعض السنن وبعض المسائل، ولم يصل إلينا من تلك المدونات إلا صدى (١).

ويقول «جولدزهر» في مقاله عن كلمة (فقه) في دائرة المعارف الإسلامية: «وينبغي ألا يعطى كبير ثقة لما نسب لهشام بن عروة من أنه في يوم الحرة حرقت لأبيه كتب فقه، ولا يمكن أن يتصور بحال أنه في ذلك العهد البعيد كانت توجد كتب بالمعنى الصحيح وإنما هي صحائف متفرقة. وتوفى عروة سنة ٩٤هـ - ٧١٢م التي كانت تسمى «سنة الفقهاء» لكثرة من مات فيها من الفقهاء».

(١) على أن تلك المدونات لم تكن إلا صحائف أو مذكرات. أما أول تدوين للسنن بالمعنى الحقيقي فيقع نحو ما بين سنتي ١٢٠ و ١٥٠هـ.

ويقول ابن قتيبة: إن ابن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤هـ هو أول من كتب الحديث.

وفي كتاب «كشف الظنون»: «واعلم أنه اختلف في أول من صنف فقيل: الإمام عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج البصرى المتوفى سنة ١٥٥هـ / ٧٧١ - ٧٧٢م. وقيل أبو النصر سعيد بن أبي عروبة المتوفى سنة ١٥٦هـ / ٧٧٢ - ٧٧٣م ذكرهما الخطيب البغدادي. وقيل ربيع بن صبيح المتوفى سنة ١٦٦هـ / ٧٨٢ - ٧٨٣م «قاله الراهمزمي». وكان مطمح نظرهم بالتدوين ضبط معاهد القرآن والحديث ومعانيهما». ج ١ ص ٢٥،

. ٢٦

وبالجملية: فإنه إذا كان دون شيء لضبط معاقد القرآن والحديث ومعانيهما في عهد بني أمية، فإن التدوين في الفقه بالمعنى المحدث لم يكن إلا في عهد العباسيين:

هذا هو الرأي الذي كان مقررا بين الباحثين، لكن «جولدزيهر» يذكر في المقال الذي أشرنا إليه آنفاً ما يأتي: «وقد اكتشف «جرفيني» بين المخطوطات القيمة في المكتبة «الأمبروزية» بميلانو الخاصة ببلاد العرب الجنوبية، مختصراً في (الفقه) اسمه (مجموعة زيد بن علي) المتوفى سنة ١٢٢هـ - ٧٤٠م وهو منسوب إلى مؤسس فرقة (الزيدية) من الشيعة، وعلى ذلك تكون هذه المجموعة أقدم مجموعة في الفقه الإسلامي. وعلى كل حال ينبغي أن يوضع هذا الكتاب موضع الاعتبار فيما يتعلق بتاريخ التأليف في الفقه الرسالامي. وإذا صح أنه وصل إلينا من بطانة «زيد بن علي» وجب أن نعترف بأن أقدم ما وصل إلينا من المصنفات الفقهية هو من مؤلفات الشيعة الزيدية».

على أن البحث الذي أثير لتعيين مركز هذا الكتاب بين المؤلفات الفقهية لم يكمل.

ومن أسف أن هذا البحث لم يثره مسلمون، ولا أثير في بلاد إسلامية. وقد ذكر صاحب «الفهرست» عند الكلام على الزيدية ما نصه: الزيدية الذين قالوا بإمامة زيد بن علي عليه السلام، ثم قالوا بعده بالإمامة في ولد «فاطمة» كائناً من كان، بعد أن يكون عنده شروط الإمامة. وأكثر المحدثين على هذا المذهب مثل «سفيان بن عيينة» «وسفيان الثوري»... ص ١٨٧.

وعلاقة هذين الإمامين بنهضة الفقه عند أهل السنة تجعل للبحث الذي يشير إليه «جولدزيهر» شأنًا خطيراً.

وجاء عهد العباسيين منذ سنة ١٣٢هـ و ٧٤٩ - ٧٥٠م وشجع الخلفاء الحركة العلمية وأمدوها بسلطانهم، فكان طبيعياً أن تتعش العلوم الدينية في ظلهم، بل كانت حركة النهوض أسرع إلى العلوم الشرعية؛ لأنها كانت في دور نمو طبيعي وتكامل.

وهناك سبب آخر يذكره «جولدزيهر» في كتابه «عقيدة الإسلام وشرعه» هو: «أن حكومة الأمويين كانت متهمه بأنها دنيوية، فحلت محلها دولة دينية سياستها سياسة مليّة».

كان العباسيون يجعلون حقهم في الإمامة قائماً على: أنهم سلالة البيت النبوي، وكانوا يقولون: إنهم سيثيدون على أطلال الحكومة الموسومة عند أهل التقى بالزندقة نظاماً منطبقاً على سنة النبي وأحكام الدين الإلهي.

ويلاحظ أن المثل الأعلى للسياسة الفارسية، وهو الاتصال الوثيق بين الدين والحكومة، كان برنامج الحكم العباسي.

وقد اقتضى ضبط أمور الدولة على منهاج شرعي، جمع الأحكام الشرعية، وتدوينها.

وفي صدر العهد العباسي تمكن الاستنباط واستقرت أصوله وجعل لفظ «الفقه» ينتهي بالتدرج إلى أن يكون غير مقصور على المعنى الأصلي، أي الاستنباط من الأدلة التي ليست نصوصاً، وأصبح المعنى الأول للفقه هو: «الأحكام الشرعية العملية المأخوذة من أدلتها التفصيلية» نصوصاً كانت أو رأياً، وسمى أهل هذا الشأن بالفقهاء، ونشأ التأليف في الفقه بهذا المعنى، وانقسم الفقه إلى طريقتين: طريقة أهل الرأي والقياس، وهم أهل العراق، وطريقة أهل الحديث، وهم أهل الحجاز.

أهل الرأي وأهل الحديث

ومقدم جماعة أهل الرأي الذى استقر المذهب فيه وفى أصحابه هو: «أبو حنيفة» المعتبر أبا لمذهب أهل العراق، أسسه وأعانه على تأسيسه تلميذاه الجليلان: «أبو يوسف» القاضى المتوفى سنة ١٨٢هـ - ٧٩٧م و«محمد بن الحسن» الشيبانى المتوفى سنة ١٨٩هـ - ٨٠٤م.

ولئن كان حماد بن سليمان الكوفى المتوفى سنة ١٢٠هـ - ٧٣٧ و٧٣٨م هو أول من جمع حوله طائفة من التلاميذ يعلمهم الفقه، مع ميل غالب للرأى، وكان «أبو حنيفة» من هؤلاء التلاميذ، فإن حمادا لم يترك أثرا علميا مكتوبا. أما أبو حنيفة فيقول صاحب «الفهرست»: «وله من الكتب كتاب الفقه الأكبر - كتاب رسالته إلى اليسقى - كتاب العالم والمتعلم رواه عنه مقاتل - كتاب الرد على القدرية - والعالم براً وبحراً، شرقاً وغرباً، بعداً وقرباً، تدوينه رضى الله عنه». ص ٣٠٢.

ويذكر الموفق بن أحمد المكي الحنفى فى كتابه «مناقب الإمام الأعظم» أثر أبى حنيفة فى الفقه بقوله ج ١ ص ١٣٦، ١٣٧: «وأبو حنيفة أول من دون علم الشريعة، لم يسبقه أحد ممن قبله؛ لأن الصحابة والتابعين لم يضعوا فى علم الشريعة أبواباً مبوبة ولا كتباً مرتبة إنما كانوا يعتمدون على قوة فهمهم وجعلوا قلوبهم صناديق علمهم، فنشأ أبو حنيفة بعدهم فرأى العلم منتشرًا فخاف عليه الخلف السوء أن يضيعوه. ولهذا قال ﷺ: إن الله تعالى لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، وإنما ينتزعه بموت العلماء، فيبقى رؤساء جهال فيفتون بغير علم، فيضلون ويضلون. فلذلك دونه أبو حنيفة

فجعلله أبواباً مبوبة، وكتباً مرتبة، فبدأ بالطهارة ثم بالصلاة ثم بسائر العبادات على الولاء، ثم بالمعاملات، ثم ختم بكتاب الموارث.

وإنما ابتدأ بالطهارة ثم بالصلاة لأن المكلف عد صحة الاعتقاد أول ما يخاطب بالصلوات، لأنها أخص العبادات وأعم وجوباً، وآخر المعاملات لأن الأصل عدمها وبراءة الذمة منها. وختمه بالوصايا والموارث لأنها آخر أحوال الإنسان. فما أحسن ما ابتدأ به وختم، وما أحذقه وأفهم وأفقه وأمهر وأعلم وأبصر!

ثم جاء الأئمة من بعده فاقتبسوا من علمه، واقتدوا به، وفزعوا كتبهم على كتبه. ولهذا روينا بإسناد حسن عن الشافعي - رحمه الله - أنه قال في حديث طويل: «العلماء عيال على أبي حنيفة في الفقه».

وروى عن ابن سريج - رحمه الله - أنه سمع رجلاً يتكلم في أبي حنيفة، فقال له: يا هذا مه، فإن ثلاثة أرباع العلم مسلمة له بالإجماع، والرابع لا يسلمه لهم.

قال: وكيف ذلك؟ قال: لأن العلم سؤال وجواب، وهو أول من وضع الأسئلة فهذا نصف العلم، ثم أجاب عنها فقال بعض: أصاب، وبعض: أخطأ، فإذا جعلنا صوابه بخطئه صار له نصف النصف الثاني، والرابع الرابع ينازعهم فيه ولا يسلمهم لهم... ولأنه - رحمه الله - أول من وضع كتاباً في الفرائض، وأول من وضع كتاباً في الشروط، والشروط لا يستطيع أن يضعها إلا من تنهى في العلم وعرف مذاهب العلماء ومقالاتهم؛ لأن الشروط تنفرع على جميع كتب الفقه ويتحرز بها من كل المذاهب لئلا ينقضها حاكم بنقضٍ

أو فسخ... وقد قيل بلغت مسائل أبي حنيفة خمسمائة ألف مسألة وكتبه وكتب أصحابه تدل على ذلك».

وجملة القول: أن صاحب مذهب أهل الرأى هو الذى رتب أبواب الفقه، وأكثر من جمع مسائله فى الأبواب المختلفة، وكان الحديث قليلا. فى العراق فاستكبروا من القياس ومهروا فيه، فلذلك قيل: «أهل الرأى».

وإنما كان أهل الحجاز أكثر رواية للحديث من أهل العراق لأن المدينة دار الهجرة، ومأوى الصحابة. ومن انتقل منهم إلى العراق كان شغلهم بالجهاد وغيره من شؤون الدولة أكثر.

ومذهب أهل العراق كان يقصد إلى جعل الفقه وافية بحاجة الدولة التشريعية، فكان همه أن يجعل الفقه فصولا مرتبة يسهل الرجوع إليها عند القضاء والاستفتاء، وكان همه أن يكثر التفاريع حتى تقوم بما يعرض ويتجدد من الحوادث. لا جرم كان مذهب أهل الرأى مذهب القضاء، وكان أئتمته قضاة كأبى يوسف، ومحمد. وكان أهل الحديث يعيرون أهل الرأى بكثرة مسائلهم وقلة روايتهم.

وسئل رقية بن مصقلة عن أبى حنيفة فقال: «هو أعلم الناس بما لم يكن، وأجهلهم بما قد كان. وقد روى هذا القول عن حفص بن غياث فى أبى حنيفة. يريد أنه لم يكن له علم بآثار من مضى». عن كتاب مختصر جامع بيان العلم.

ويروى ابن عبد البر فى كتاب "الانتقاء" ص ١٤٧ "عن الحكم بن واقد قال: رأيت أبا حنيفة يفتى من أول النهار إلى أن يعلو النهار، فلما خف عنه الناس دنوت منه فقلت: يا أبا حنيفة، لو أن أبا بكر وعمر فى مجلسنا

هذا ثم ورد عليهما ما ورد عليك من هذه المسائل المشكلة لكفا عن بعض الجواب ووفقا عنه . فنظر إليه وقال : أمحوم أنت؟ بمعنى مبرسما " .

أما أهل الحديث - أهل الحجاز - فإمامهم "مالك بن أنس" وكانت طريقة أهل الحجاز في الأسانيد أعلى من سواهم وأمتن في الصحة لاشتدادهم في شروط النقل من العدالة والضبط، وتجايفهم عن قبول "المجهول الحال"، في ذلك .

وكتب "مالك" كتاب "الموطأ" وأودعه أصول الأحكام من الصحيح المتفق عليه ورتبه على أبواب الفقه .

وفي كتاب (تبييض الصحيفة): أن (مالكا) في ترتيبه للموطأ متابع لأبي حنيفة . ومن العسير إثبات ذلك، فإن أبا حنيفة ومالكا كانا متعاصرين، وأن تأخر الأجل بمالك . وأقدم ما حفظ من المجاميع الفقهية المؤلفة في عصور الفقه الأولى بين السنين هو "موطأ مالك" .

ويقول صاحب الفهرست في سرد كتب مالك: " . . . وله من الكتب؛ كتاب الموطأ - كتاب رسالته إلى الرشيد " . ص ١٩٩ .

وكانت وجهة أهل الحجاز كوجهة أهل العراق: تدوين الأحكام الشرعية مبوية مرتبة، إلا أن اعتماد أهل الحديث على السنة أكثر من اعتمادهم على الرأي، بل هم كانوا يعتبرون الرأي ضرورة لا يلجأون إليها إلا على كره وعلى غير اطمئنان .

وقد روى عن مالك: أنه قال في بعض ما كان ينزل فيسأل عنه فيجتهده فيه رأيه: ﴿إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين﴾ . مختصر جامع بيان العلم ص ١٩٢ .

وكان أهل الحديث يكرهون أن يتكاثر الناس بالمسائل كما يتكاثر أهل
الدرهم بالدرهم، وكانوا يكرهون السؤال عما لم يكن، قالوا: ألا ترى أنهم
كانوا يكرهون الجواب في مسائل الأحكام ما لم تنزل، فكيف بوضع
الاستحسان والظن والتكلف وتسيطر ذلك واتخاذة دينا!

وفي "الانتقاء": "قال الهيثم بن جميل: شهدت مالك بن أنس سئل
عن ثمان وأربعين مسألة فقال في اثنتين وثلاثين منها: لا أدرى".
ولم يكن أهل الحديث مع ذلك ينكرون اجتهاد الرأي، والقياس على
الأصول في النازلة تنزل عند عدم النصوص.

الشافعى بين أهل الرأى وأهل الحديث

ظهر الشافعى والأمر على وصفنا، من نهضة الدراسة الفقهية فى بلاد الإسلام نهضة ترمى إلى الوفاء بالحاجة العملية فى دولة تريد أن تجعل أحكام الشرع دستوراً لها، ومن انقسام الفقهاء، إلى أهل رأى يعتمدون فى نهضتهم على سرعة أفهامهم، ونفاذ عقولهم، وقوتهم فى الجدل؛ وأهل حديث يعتمدون على السنن والآثار، ولا يأخذون من الرأى إلا بما تدعو إليه الضرورة.

كان أهل الرأى يعيبون أصحاب الحديث بالإكثار من الروايات، الذى هو مظنة لقلّة التدبر والتفهم. "حكى عن أبى يوسف قال: سألتى الأعمش عن مسألة وأنا وهو لا غير، فأجبتة، فقال لى: من أين قلت هذا يا يعقوب؟ فقلت: بالحديث الذى حدثنى أنت. فقال: يا يعقوب إنى لأحفظ هذا الحديث من قبل أن يجتمع أبواك، ما عرفت تأويله إلى الآن". مختصر جامع بيان العلم ص ١٨٢.

فأصحاب الحديث كانوا حافظين لأخبار رسول الله، ألا أنهم كانوا عاجزين عن النظر والجدل، وكلما أورد عليهم أحد من أصحاب الرأى سؤالاً أو إشكالا سقط فى أيديهم متحيزين. الرازى ص ٣٨.

هم ضعاف فى الاستنباط وفى القدرة على دفع المطاعن والشبهات عن الحديث.

وكان أهل الحديث يعيبون أهل الرأى بأنهم يأخذون فى دينهم بالظن،

وأنهم ليسوا للسنة ولا هم فيها بمتشبتين؛ فإن أصحاب أبي حنيفة يقدمون القياس الجلى غير خبر الواحد، وهم يقبلون المراسيل، والمجاهيل، أى الحديث المرسل الذى أسنده التابعى أو تابع التابعى إلى النبى ﷺ من غير أن يذكر الصحابى الذى روى الحديث. أما المجاهيل فهم مجهولون الحال من الرواة.

ثم لا يقبلون الحديث الصحيح إذا كان مخالفاً للقياس، ولا يقبلونه فى الواقعة التى تسم البلوى. الرازى ص ٢٥٠، ٢٥١.

كانت الحال على ما ذكرنا حين جاء الشافعى، وقد تفقه الشافعى أول ما تفقه على أهل الحديث من علماء مكة، كمسلم بن خالد الزنجى، وسفيان بن عيينة، ثم ذهب إلى إمام أهل الحديث "مالك بن أنس" فى المدينة فلزمه، ولقى من عطفه ومن فضله ما جعله يحبه ويجله. "عن يونس بن عبد الأعلى أنه سمع الشافعى يقول: "إذا ذكر العلماء فمالك النجم، وما أحد أمن على من مالك بن أنس". الانتقاء ص ٢٣.

على أن نشأة الشافعى لم تكن من كل وجه نشأة الحديث، ولا استعداده استعدادهم.

لقد توجه فى أول أمره إلى درس اللغة والشعر والأدب وأخبار الناس، ولم يقطع صلته بهذه العلوم حين وصل حبله بأهل الحديث الذين كانوا لا يرونها من العلم النافع. "حكى عن مصعب الزبيرى قال: كان أب يوالشافعى يتناشدان، فأتى الشافعى على شعر هذيل خفظاً وقال: لا تعلم بهذا أحدًا من أهل الحديث فإنهم لا يحتملون هذا". معجم الأدياء ج ٦ ص ٣٨٠.

وكان الشافعى بطبعه نهماً فى العلم، يلتمس كل ما يجده من فنونه،

وقد ذكر من ترجموا له: أنه اشتغل بالفراسة حين ذهب إلى اليمن، وعالج التنجيم والطب، وربما كان درسهما في إحدى رحلاته إلى العراق، حيث كان التنجيم يعتبر فرعاً من فروع العلوم الرياضية، وكان الطب فرعاً من العلم الطبيعي. والعلم الرياضى والعلم الطبيعي قسمان من أقسام الفلسفة التي كان مسلمو العراق أخذوا يتنسمون ريحها. وكان الشافعي مغرماً بالرمي يف شبابه ولم يكن في كهولته يأنف من الوقوف عند مهرة الرماة يدعو لهم ويمددهم بالمال، ويظهر: أنه لم يكن شديداً في جرح الرجال كعادة أهل الحديث. وقد نقل صاحب كتاب "طبقات الشافعية الكبرى" حكاية تدل على سخرية الشافعي من تزمت المزكين.

"قال الشافعي - رضى الله عنه - حضرت بمصر رجلاً مزكياً يجرح رجلاً، فسئل عن سببه وألح عليه فقال: رأيت يبول قائماً، قيل وما في ذلك؟ قال: يرد الريح من رشاشة على بدنه وثيابه فيصلى فيه. هل رأيت أصابه الرشاش وصلى قبل أن يغسل ما أصابه؟ قال: لا ولكن أراه سيفعل". ج ١ ص ١٩٤، ١٩٥.

وكان في العلماء المعاصرين للشافعي، بل أهل الرأي منهم، بله أهل الحديث، من لا يراه ممنعاً في الحديث. "عن أبي عبد الله الصاغاني يحدث عن يحيى بن أكرم قال: كنا عند محمد بن الحسن في المناظرة، وكان الشافعي رجلاً قرشى العقل والفهم، صافى الذهن، سريع الإجابة، ولو كان أكثر سماع الحديث لاستغنت أمة محمد به عن غيره من العلماء". ابن حجر ص ٥٩.

ولما ذهب الشافعي إلى العراق استرعى نظره تحامل أهل الرأي على

أستاذه مالك وعلى مذهبه، وكان أهل الرأي أقوى سنداً وأعظم جاهاً بما لهم من المكانة عند الخلفاء، ويتولاهم شئون القضاء، ذلك إلى أنهم أوسع حيلة في الجدل من أهل الحديث وأتقن بياناً. ويمثل حال الفريقين من هذه الناحية، ما روى عن إمامي أهل الرأي وأهل الحديث: أبي حنيفة ومالك.

روى عن ابن عبد البر المالكي عن الطبري قال: وكان مالك قد ضرب بالسياط، واختلف فيمن ضربه وفي السبب الذي ضرب فيه. قال: فحدثني العباس بن الوليد قال: خبرنا ذكوان عن مروان الطاطري، أن أبا جعفر نهى مالكا عن الحديث: "ليس على مستكره طلاق"، ثم دس إليه من يسأله عنه، فحدث به على رءوس الناس. الانتقاء ص ٤٣، ٤٤.

أما أبو حنيفة فينقل في شأنه الموفق المكي في كتاب "المناقب": "عن معمر بن الحسن الهروي يقول: اجتمع أبو حنيفة ومحمد بن إسحاق عند أبي جعفر المنصور، وكان جمع العلماء والفقهاء، من أهل الكوفة والمدينة وسائر الأمصار، لأمر حزبه، وبعث إلى أبي حنيفة فنقله على البريد إلى بغداد، فلم يخرج من ذلك الأمر الذي وقع له إلا أبو حنيفة، فلما قضيت الحاجة على يديه حبسه عند نفسه ليرفع القضاء والحكام الأمور إليه، فيكون هو الذي ينفذ الأمور ويفضل الأحكام، وحبس محمد بن إسحاق ليجمع لابنه المهدي حروب النبي ﷺ وغزواته. قال: فاجتمعنا يوماً عنده، وكان محمد بن إسحاق يحسده لما كان يرى من المنصور من تفضيله وتقديمه واستشارته فيما ينوبه وينوب رعيته وقضاته وحكامه، وسأل أبا حنيفة عن مسألة أراد بها أن يغير المنصور عليه، فقال له: ما تقول يا أبا حنيفة في رجل حلف ألا يفعل كذا وكذا، أو أن يفعل كذا وكذا، ولم يقل إن شاء الله، موصولا باليمين،

وقال ذلك بعد ام فرغ من يمينه وسكت؟ فقال أبو حنيفة: لا ينفعه الاستثناء إذا كان مقطوعاً من اليمين، وإنما كان ينفعه إذا كان موصولاً به. فقال: وكيف لا ينفعه وقد قال جد أمير المؤمنين الأكبر أبو العباس عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أن استثناءه جائز، ولو كان بعد سنة، واحتج بقوله عز وجل: ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾؟ فقال المنصور لمحمد بن إسحاق: أهكذا قال أبو العباس صلوات الله عليه؟ قال نعم! فالتفت إلى أبي حنيفة - رحمه الله - وقد علاه الغضب، فقال تخالف أبا العباس؟ فقال أبو حنيفة: لم أخالف أبا العباس، ولقول أبي العباس عندي تأويل يخرج على الصحة، ولكن بلغنى أن النبي ﷺ قال: "من حلف على يمين واستثنى فلا حث عليه". وإنما وضعناه إذا كان موصولاً باليمين، وهؤلاء لا يرون خلافتك، لهذا يحتجون بخبر أبي العباس، فقال له المنصور كيف ذلك. قال: لأنهم يقولون إنهم بايعوك حيث بايعوك تقية، وإن لهم الثنيا متى شاءوا يخرجون من بيعتك ولا يبقى فى أعناقهم من ذلك شيء. قال: هكذا؟ قال: نعم. فقال المنصور: خذوا هذا، يعنى محمد بن إسحاق. فأخذ وجعل رداؤه فى عنقه وجسوه". ج ١ ص ١٤٢ - ١٤٤.

كان طبيعياً أن يجادل الشافعى عن أستاذه وعن مذهب أستاذه، وقد نهض الشافعى لذلك قوياً بعلمه، قوياً بفصاحته، قوياً بشبابى عنقوانه، وحمية عربية. وقد رويت لنا نماذج من دفاع الشافعى عن مالك ومذهبه: عن محمد بن الحكم قال: سمعت الشافعى يقول: قال لى محمد بن الحسن: صاحبنا أعلم من صاحبكم، يعنى "أبا حنيفة ومالك"، وما كان على صاحبكم أن يتكلم، وما كان لصاحبنا أن يسكت. قال: فغضبت وقلت:

نشدتك الله من كان أعلم بسنة رسول الله ﷺ، مالك أو أبو حنيفة؟ قال: مالك، لكن صاحبنا أقيس. فقلت: نعم ومالك أعلم بكتاب الله تعالى وناسخه ومنسوخه وسنة رسول الله ﷺ من أبي حنيفة. فمن كان أعلم بكتاب الله وسنة رسوله كان أولى بالكلام". . الانتقاء ص. ٢٤.

كان هذا الحجاج عن مذهب مالك، في قدوم الشافعي إلى العراق أول مرة. وأقام الشافعي في العراق زمناً غير قصير، ودرس فيه كتب محمد بن الحسن وغيره من أهل الرأي فيما درس في العراق، ولازم محمد بن الحسن، ورد على بعض أقواله وآرائه نصيراً لأهل الحديث.

ولا شك أن الشافعي في ذلك العهد كان متأثراً بمذهب أهل الحديث، ومتأثراً بملازمة عالم دار الهجرة، فهو كان يدافع عن مذهبه بدافع حميته لأستاذه وأنصار أستاذه المستضعفين.

أما ابن البزاز الكردي فهو يروي في سبب اختلاف الشافعي على محمد ابن الحسن روايات يقول فيها: "عن عبد الرحمن الشافعي: لم يعرف الشافعي لمحمد حقه، وأحسن إليه فلم يف له. وعن إسماعيل الزني، قال الإمام الشافعي: حبست بالعراق لدين فسمع محمد بن فخلصني، فأنا له شاكرًا من بين الجميع. عن ابن سماعة قال: أفلس الشافعي غير مرة فجاء إلى محمد فحدث أصحابه فجمع له سبعين ألف درهم، ثم أتاه الثالثة، فقال: لا أهب مروءتي من بين أصحابي، لو كان أوساط أصحابه ويعد نفسه منهم، فلما أتى محمدًا الثالثة أظهر الخلاف". المناقب ج ٢ - ص ١٥٠، ١٥١.

والشافعي نفسه يرد على ذلك، فقد أخرج الحاكم من طريق محفوظ

ابن أبي توبة قال: سمعت الشافعي يقول إنني أخالفهم للدنيا، وكيف يكون ذلك والدنيا معهم؟ وإنما يريد الإنسان الدنيا ليطنه وفرجه؟ وقد منعت ما ألد من المطاعم، ولا سبيل إلى النكاح - يعني لما كان به من البواسير - ولكن لست أخالف إلا من خالف إلا من خالف سنة رسول الله. ابن حجر ص

.٧٦



آثاره وكتبه

ولما عاد الشافعي إلى بغداد في سنة ١٩٥ هـ - ٨١٠ - ٨١١ م ليقيم فيها سنتين اشتغل بالتدريس والتأليف. وروى البغدادي في "كتاب تاريخ بغداد":

"عن أبي الفضل الزجاج يقول: لما قدم الشافعي إلى بغداد وكان في الجامع إما نيف وأربعون حلقة، أو خمسون حلقة، فلما دخل بغداد ما زال يقعد في حلقة حلقة ويقول لهم: قال الله وقال الرسول، وهم يقولون: قال أصحابنا. حتى ما بقي في المسجد حلقة غيره". ص ٦٨، ٦٩.

واختلف إلى دروس الشافعي جماعة من كبار أهل الرأي كأحمد بن حنبل وأبي ثور، فانتقلوا عن مذهب أهل الرأي إلى مذهبه. ويروى عن أحمد بن حنبل أنه قال: "ما أحد من أصحاب الحديث حمل محبرة، إلا وللشافعي عليه منة"، فقلنا: يا أبا محمد كيف ذلك؟ قال: إن أصحاب الرأي كانوا يهزأون بأصحاب الحديث حتى علمهم الشافعي وأقام الحجة عليهم "الانتقاء ص ٧٦.

ووضع الشافعي في بغداد كتاب "الحجة". "روى ابن حجر عن البويطي أن الشافعي قال: اجتمع على أصحاب الحديث فسألوني أن أضع على كتاب أبي حنيفة، فقلت: لا أعرف قولهم حتى أنظر في كتبهم. فأمرت فكتب لي كتب محمد بن الحسن، فنظرت فيها سنة حتى حفرتها، ثم وضعت الكتاب البغدادي، يعني "الحجة". ص ٧٦.

ويظهر من ذلك: أن مذهب الشافعي القديم الذي وضعه في بغداد كان في جل أمره رداً على مذهب أهل الرأي، وكان قريباً إلى مذهب أهل الحديث.

وروى البغدادي عن حرملة: أنه سمع الشافعي يقول: "سميت ببغداد ناصر الحديث". ج ٢ ص ٦٨.

ونقل ابن حجر عن البيهقي: أن كتاب "الحجة" الذي صنفه الشافعي ببغداد حمله عنه الزعفراني، وله كتب أخرى حملها غير الزعفراني، منها: كتاب "السير" رواية أبي عبد الرحمن أحمد بن يحيى الشافعي.

وفي كتاب كشفت الظنون:

"الحجة للإمام الشافعي، وهو مجلد ضخم ألفه بالعراق، إذا أطلق القديم من مذهبه يراد به هذا التصنيف، قاله الأسنوي في المبهمات. ويطلق على ما أفتى به هناك أيضاً".

ثم انتهى الشافعي إلى مصر فأزره تلاميذ مالك، حتى إذا وضع مذهبه الجديد وأخذ يؤلف الكتب رداً على مالك تنكروا له وأصابته منهم نحن.

"قال الربيع: سمعت الشافعي يقول: قدمت مصر لا أعرف أن مالكا يخالف من أحاديثه إلا ستة عشر حديثاً، فنظرت فإذا هو يقول بالأصل ويدع، ويقول بالفرع ويدع بالأصل.

ثم ذكر الشافعي في رده على مالك، المسائل التي ترك الأخبار الصحيحة فيما يقول واحد من الصحابة أو بقول واحد من التابعين، أو لرأى نفسه.

ثم ذكر ما ترك فيه أقاويل الصحابة لرأى بعض التابعين أو لرأى نفسه وذلك أنه ربما يدعى الإجماع، وهو مختلف فيه .

ثم بين الشافعى أن ادعاء أن إجماع أهل المدينة حجة، قول ضعيف .
الرازى ص ٢٦ .

ويروى بعض الرواة: أن الشافعى إنما وضع الكتب على مالك لأنه بلغه أن بالأندلس قلنسوة لمالك يستبقى بها، وكان يقال لهم: قال رسول الله ﷺ، فيقولون: قال مالك، فقال الشافعى: إن مالكا بشر يخطئ. فدعاه ذلك إلى تصنيف الكتاب فى اختلافه معه . وكان يقول: استخرت الله تعالى فى ذلك .
ابن حجر ص ٧٦ .

ومذهب الشافعى الجديد الذى وضعه فى مصر هو الذى يدل على شخصيته وينم عن عبقريته، ويبرز استقلاله .

"سئل أحمد: ما ترى فى كتب الشافعى التى عند العراقيين أهى أحب إليك، أم التى بمصر؟ قال: عليك بالكتب التى وضعها بمصر فإنه وضع هذه الكتب بالعراق م يحكمها، ثم رجع إلى مصر فأحكم تلك، كما يرويه الذهبى فى تاريخه الكبير" . هامش الانتقاء ص ٧٧ .

ومذهب الشافعى الجديد وصل إلينا فيما ألفه بمصر من الكتب . وقد سرد البيهقى المتوفى سنة ٤٥٨ هـ - ١٠٦٥ - ١٠٦٦ م كتب الشافعى ولخصها عنه ابن حجر فى ص ٧٨ :

(الرسالة القديمة، ثم الجديدة - اختلاف الحديث، جماع العلم - إبطال الاستحسان - أحكام القرآن - بيان الفرض - صفة الأمر والنهى - اختلاف

مالك والشافعي - اختلاف العراقيين - اختلافه مع محمد بن الحسن - كتاب
على وعبد الله - فضائل قريش - كتاب الأم .

وعدة كتب الأم: مائة ونيف وأربعون كتاباً. وحمل عنه حرمة كتاباً
كبيراً يسمى "كتاب السنن"، وحمل عنه المزي كتابه "المبسوط" وهو المختصر
الكبير، والمثورات، وكذا المختصر المشهور. قال البيهقي: وبعض كتبه الجديدة
لم يعد تصنيفها، وهي: الصيام - والصدقات - والحدود - والرهن الصغير -
والإجارة - والجنازات - فإنه أمر بقراءة هذه الكتب عليه في الجديد وأمر
بتحريق ما يغير اجتهاده. قال: وربما تركه اكتفاء بما نبه عليه من رجوعه عنه
في مواضع أخرى.

قلت: وهذه الحكاية مفيدة ترفع كثيراً من الأشكال الواقعة بسبب مسائل
اشتهر عن الشافعي الرجوع عنها وهي موجودة في بعض هذه الكتب.

ثم نقل ابن حجر: أن لأصحاب الشافعي من أهل الحجاز والعراق عنه
مسائل وزيادات. قال: وهذا يدل على أن "كتباً أخرى حملها عنه هؤلاء؛
لأن هذه المسائل ليست في الكتب المقدم ذكرها".

وقد ترك ابن حجر في تلخيصه: كتاب "مسند الشافعي" ولا ندرى:
أن كان البيهقي قد تركه أيضاً أم لا؟ ويقول الرازي: "إن كتابه المسمى بمسند
الشافعي كتاب مشهور في الدنيا". ص ١٤٦.

كان اتجاه المذاهب الفقهية قبل الشافعي إلى جمع المسائل وترتيبها وردها
إلى أدلتها التفصيلية عندما يكون دلائلها نصوصاً.

وأهل الحديث لكثرة اعتمادهم على النص كانوا أكثر تعرضاً للذكر
الدلائل من أهل الرأي.

فلما جاء الشافعي بمذهبه الجديد كان قد درس المهذبين، ولاحظ ما فيهما من نقص بدا له أن يكمله، وأخذ ينقض بعض التفريعات من ناحية خروجها عن متابعة نظام متحد في طريقة الاستنباط.

وذلك يشعر باتجاهه في الفقه اتجاهًا جديدًا هو اتجاه العقل العلمي الذي لا يعنى بالجزئيات والفروع.

ويدل على أن اتجاه الشافعي لم يكن إلى تمحيص الفروع: وما نقله ابن عبد البر في -"الانتقاء" من: أن أحمد بن حنبل قال: "قال الشافعي لنا: أما أنتم فأعلم بالحديث والرجال مني، فإذا كان الحديث صحيحًا فأعلموني أن يكون كوفيًا، أو بصريًا أو شاميًا، أذهب إليه إذا كان صحيحًا" ص ٧٥

وطريقة علاجه لمسائل العلم تدل على منهجه، قال أبو محمد بن أخت الشافعي عن أمه قالت: ربما قدمنا في ليلة واحدة ثلاثين مرة أو أقل أو أكثر المصباح بين يدي الشافعي، وكان يستلقى ويتذكر ثم ينادي: يا جارية، هلمى مصباحًا. فتقدمه ويكتب ما يكتب، ثم يقول: ارفعيه. فقيل لأحمد: ما أراد برد المصباح؟ قال: الظلمة أجلى للقلب. مفتاح السعادة ج ٢ ص ٩١.

وليس هذا النوع من التفكير الهادئ في ظلمة الليل تفكير من يهتم بالمسائل الجزئية والتفاريع، بل هو تفكير من يعنى بضبط الاستدلالات التفصيلية بأصول تجمعها، وذلك: هو النظر الفلسفي.

قال ابن سينا في الشفاء: "إنا لا نستغل بالنظر في الجزئيات لكونها لا تنتهى، وأحوالها لا تثبت. وليس علمنا بها من حيث هي جزئية تفيدنا كمالًا حكيمًا أو تبلغنا غاية حكيمة، بل الذي يهمنا هو النظر في الكلّيات"

وكان أحمد يقول: الشافعي فيلسوف في أربعة أشياء: يف اللغة -
واختالف الناس - والمعاني - والفقه. (الرازي ص ٣٥).

وقد حاول الشافعي: أن يجمع أصول الاستنباط الفقهي وقواعدها علمًا
ممتازًا، وأن يجعل الفقه تطبيقًا لقواعد هذا العلم.
وبهذا يمتاز مذهب الشافعي من مذهب أهل العراق وأهل الحجاز.

وضع الشافعي لعلم أصول الفقه

إذا كان الشافعي هو أول من وجه الدراسات الفقهية إلى ناحية علمية فهو أيضاً: أول من وضع مصنفًا في العلوم الدينية الإسلامية على منهج علمي، بتصنيفه في أصول الفقه: قال الرازي: اتفق الناس على أن أول من صنف في هذا العلم - أي علم أصول الفقه - الشافعي، وهو الذي رتب أبوابه وميز بعض أقسامه من بعض، وشرح مراتبها في القوة والضعف.

وروى: أن عبد الرحمن بن مهدي، التمس من الشافعي وهو شاب أن يضع له كتابًا يذكر فيه: شرائط الاستدلال بالقرآن والسنة، والإجماع، والقياس، وبيان الناسخ والمنسوخ، ومراتب العموم والخصوص، فوضع الشافعي رضي الله عنه "الرسالة" وبعثها إليه، فلما قراها عبد الرحمن بن مهدي قال: ما أظن أن الله عز وجل خلق مثل هذا الرجل.

ثم قال الرازي: واعلم: أن نسبة الشافعي إلى علم الأصول كنسبة "أرسططاليس" إلى علم "المنطق"، وكنسبة "الخليل بن أحمد" إلى علم "العروض".

وذلك لأن الناس كانوا قبل "أرسططاليس" يستدلون ويعترضون بمجرد طباعهم السليمة، لكن ما كان عندهم قانون مخلص في كيفية ترتيب الحدود والبراهين، فلا جرم، كانت كلماتهم مشوشة ومضطربة؛ فإن مجرد الطبع إذا لم يستعن بالقانون الكلي، قلما يفلح.

فلما رأى "أرسططاليس" ذلك اعتزل عن الناس مدة مديدة واستخرج

علم "المنطق" ، ووضع للخلق بسببه قانونًا كليًا يرجع إليه في معرفة الحدود والرايين .

وكذلك الشعراء كانوا قبل "الخليل بن أحمد" علم "العروض" فكان ذلك قانونًا كليًا في معرفة مصالح الشعر ومفاسده . فكذلك هنا الناس كانوا قبل الإمام الشافعي يتكلمون في مسائل "أصول الفقه" ويستدلون ، ويعترضون ولكن ما كان لهم قانون كلي مرجوع إليه في معرفة دلائل الشريعة وفي كيفية معارضتها ، وترجيحاتها ، فاستنبط الشافعي علم "أصول الفقه" ووضع للخلق قانونًا كليًا يرجع إليه في معرفة مراتب أدلة الشرع . ثم يقول الرازي : واعلم أن الشافعي صنف كتاب "الرسالة" ببغداد ، ولما رجع إلى مصر أعاد تصنيف كتاب "الرسالة" ، وفي كل واحد منهما علم كثير . ص ٩٨ - ١٠٢ .

ويقول "بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى" المتوفى سنة ٧٩٤ هـ ١٣٩١ - ١٣٩٢ م في كتابه في أصول الفقه ، المسمى بالبحر المحيط : "فصل" : الشافعي أول من صنف في أصول الفقه ، صنف فيه كتاب الرسالة ، وكتاب أحكام القرآن ، واختلاف الحديث ، وإبطال الاستحسان ، وكتاب جماع العلم ، وكتاب القياس ، الذي ذكر فيه ؛ تضليل المعتزلة ورجوعه عن قبول شهادتهم .

ثم تبعه المصنفون في علم الأصول . قال أحمد بن حنبل : "لم نكن نعرف الخصوص والعموم حتى ورد الشافعي" .

وقال الجويني في شرح الرسالة . لم يسبق الشافعي أحد في تصانيف "الأصول" ومعرفتها ، وقد حكى عن ابن عباس "تخصيص عموم" وعن

بعضهم "القول بالمفهوم" ، ومن بعدهم لم يقل في الأصول شيء ولم يكن لهم فيه قدم، فإننا أننا كتب السلف من التابعين وتابعى التابعين وغيرهم فما رأيناهم صنفوا فيه . من نسخة خطية بالمكتبة الأهلية بباريس .

ويقول ابن خلدون في المقدمة: " وكان أول من كتب فيه - أى فى علم أصول الفقه - الشافعى رضى الله عنه، أملى فيه رسالته المشهورة تكلم فيها فى: الأوامر والنواهي؛ والبيان، والخبر، والنسخ، وحكم العلة المنصوصة، من القياس، ثم كتب فقهاء الحنفية فيه، وحققوا تلك القواعد وأوسعوا القول فيها، وكتب المتكلمون أيضاً: ص ٣٩٧ .

وفى كتاب "طبقات الفقهاء" للقاضى شمس الدين العثمانى الصفدى: "وابتكر الشافعى ما لم يسبق إليه، من ذلك: كتاب القسامة، وكتاب الجزية، وكتاب قتال أهل البغى" . من نسخة خطية بدار الكتب الأهلية بباريس .

ويقول صاحب كتاب "كشف الظنون": " أول من صنف فيه الإمام الشافعى " ذكره الأسنوى فى التمهيد، وحكى الإجماع فيه . ص ٣٣٤ .

والباحثون فى هذا الشأن من الغربيين يرون فى الشافعى: واضعاً " لأصول الفقه" . يقول "جولد زيهر" فى مقالته فى كلمة (فقه) فى دائرة المعارف الإسلامية: "أظهر مزايا محمد بن إدريس الشافعى أنه وضع نظام الاستنباط الشعرى من أصول الفقه، وحدد مجال كل أصل من هذه الأصول . وقد ابتدع فى (رسالته) نظاماً للقياس العقلى الذى ينبغى الرجوع إليه فى التشريع، من غير إخلال بما للكتاب والسنة من الشأن المقدم، ورتب الاستنباط من هذه الأصول، ووضع القواعد لاستعمالها بعدما كان جزافاً" .

على أنا نجد فى كتاب الفهرست فى ترجمة (محمد بن الحسن) ذكر كتاب له يسمى "كتاب أصول الفقه" .

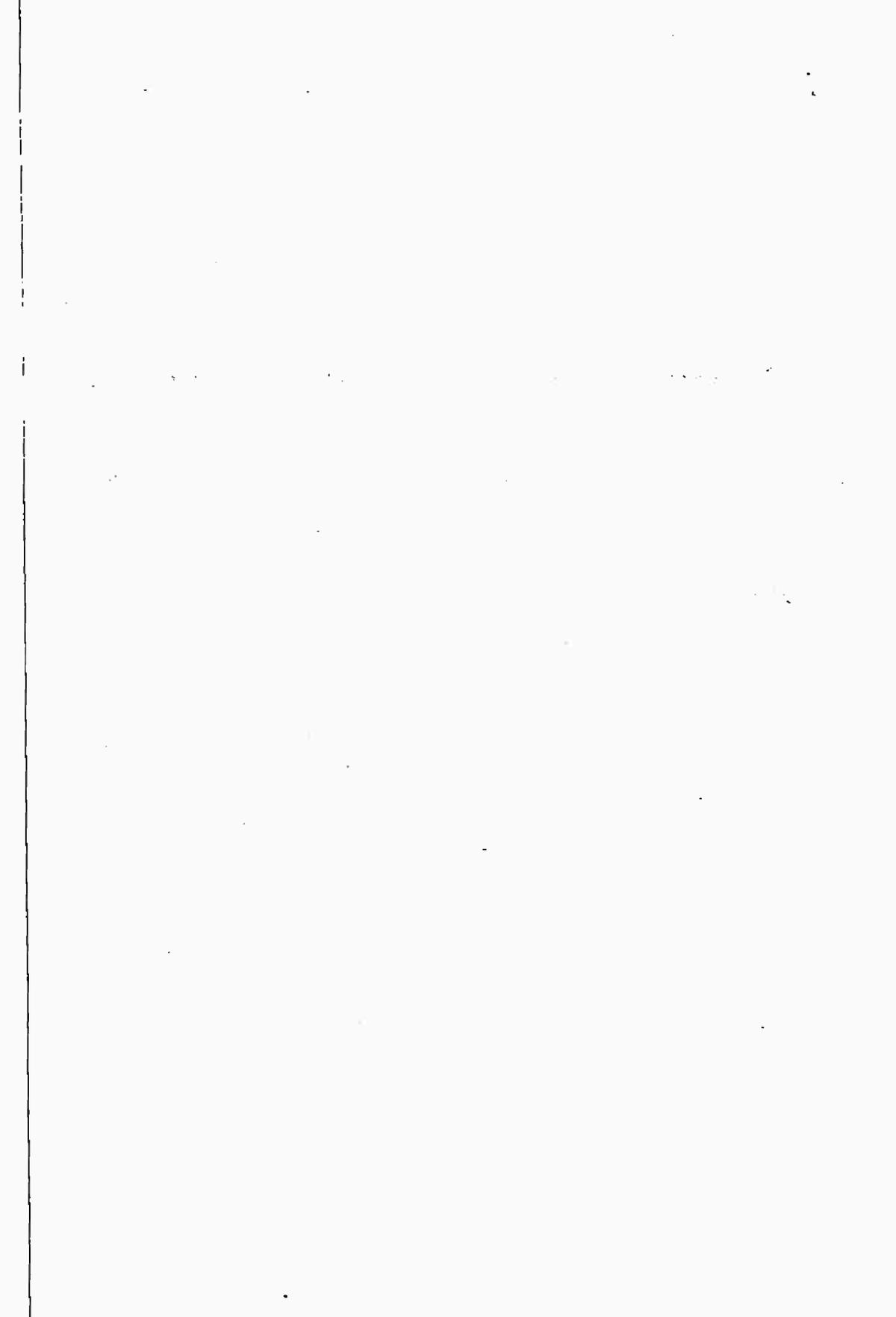
ويقول الموفق الكنى فى كتابه: " مناقب الإمام الأعظم " نقلا عن طلحة بن محمد بن جعفر؛ أن أبا يوسف أول من وضع الكتب فى " أصول الفقه " على مذهب أبى حنيفة. ج ٢ ص ٢٤٥.

ونقل ذلك طاش كبرى زاده فى كتابه " مفتاح السعادة " ج ٢ ص ١٠٢.

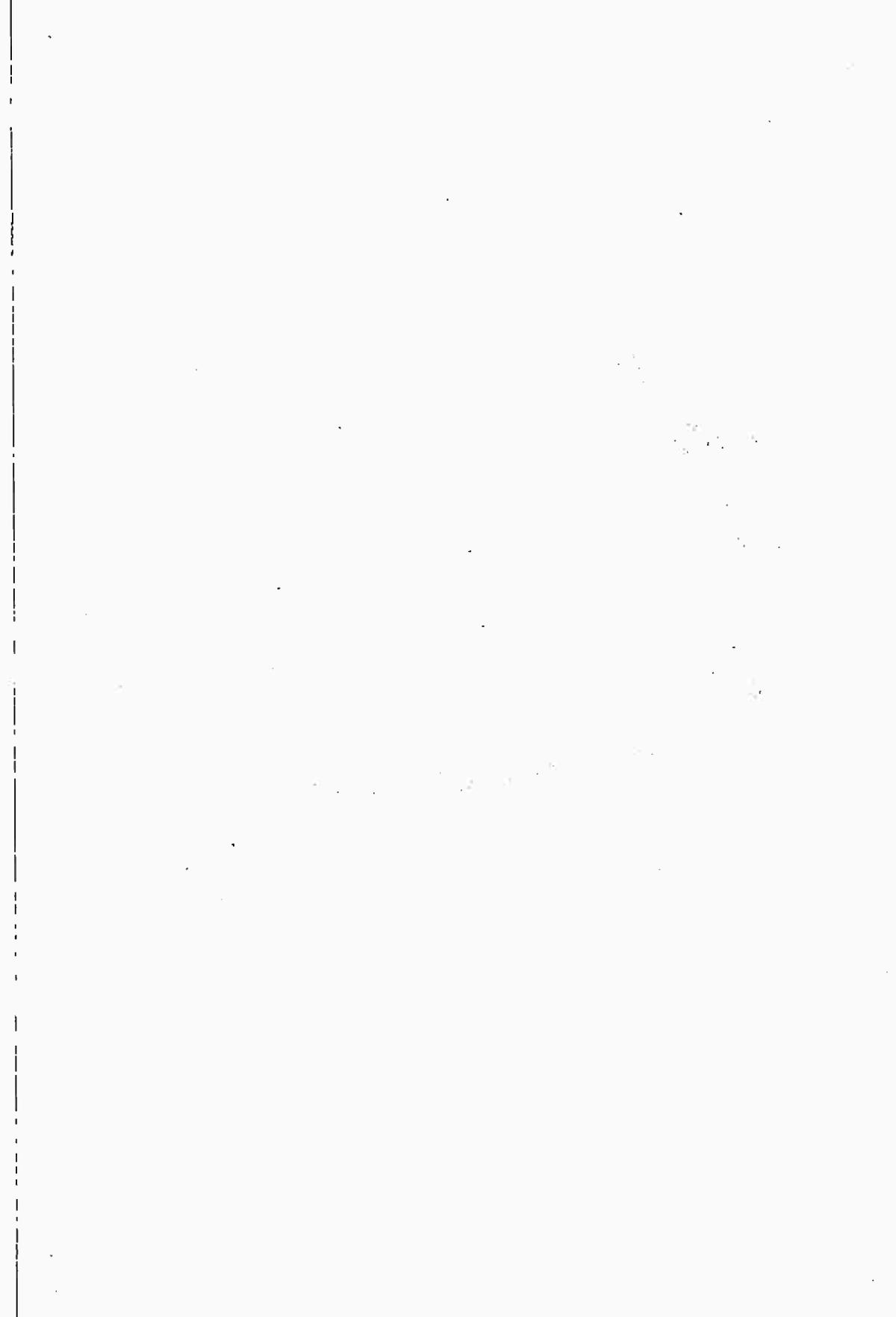
ولم يرد كتاب فى هذا العلم؛ فيما أورده صاحب " الفهرست "، لأبى يوسف من الكتب. وإذا صح أن لأبى يوسف أو لمحمد كتاباً فى أصول الفقه فهو فيما يظهر كتاب لنصرة ما كان يأخذ به أبو حنيفة ويعيبه أهل الحديث من الاستحسان.

وقد يؤيد ذلك، أن صاحب " الفهرست " ذكر فى أسماس كتب أبى يوسف " كتاب الجوامع " ألفه ليحيى بن خالد، يحتوى على أربعين كتاباً، ذكر فيه اختلاف الناس والرأى المأخوذ به. ولم يكن فى طبيعة مذهب أهل الرأى الذين كان من همهم أن يجمعوا المسائل ويستكثروا منها - النزوع إلى تقييد الاستنباط بقواعد لا تتركه متسعاً رحباً. على أن القول بأن أبا يوسف هو أول من تكلم فى (أصول الفقه) على مذهب أبى حنيفة لا يعارض القول بأن الشافعى هو الذى وضع (أصول الفقه) علماً ذا قواعد عامة يرجع إليها كل مستنبط لحكم شرعى.

وقد لا يكون بعيداً عن غرض " الشافعى " فى وضع " أصول الفقه " :
أن يقرب الشقة بين أهل الرأى وأهل الحديث، ويمهد للوحدة التى دعا إليها الإسلام.







الليث بن سعد

من المشتغلين بتاريخ الثقافة الإسلامية من يريدون أن يخصصوا بعنايتهم الجانب المصرى من هذه الثقافة فيدرسوا العلماء والأدباء من المصريين الذين ساهموا فى نشأة المعارف الإسلامية، وساهموا فى السير بها إلى الكمال. وهم بهذه الدراسة يمهدون لدرس خصائص الجانب المصرى من الثقافة الإسلامية.

ويرى أهل هذا المذهب أن فى ذلك عوناً على استيفاء البحث فى الآداب والمعارف الإسلامية.

فإن الثقافة الإسلامية ذات فروع وعناصر متفاوتة، يجب تعرف ألوانها ومذاهبها للإحاطة بكل ما لهذه الثقافة من خصائص ومميزات.

وفى هذا الاتجاه نوع من توزيع العمل بين المشتغلين بخدمة غرض مشترك، وهو تلك الثقافة الإسلامية، التى هى تراث مجيد للشرق الإسلامى، بل هى فى تاريخ الثقافات الإنسانية تراث مجيد.

ولمصر خاصة فائدة من هذا الاتجاه، إذ هو سبيل إلى توثيق الصلة بين الماضى والحاضر، وإلى مراعاة الاتساق بين حلقات التاريخ.

وحق على المصلحين والمجددين فى جماعة من الجماعات أن يتبينوا ما سجل التاريخ من منازع هذه الجماعة فى علومها وآدابها حتى يسيروا فى تجديدهم وإصلاحهم على هدى.

غير أن المصريين متهمون بأنهم يبخسون فضل أهل الفضل منهم، على

حين يمنحون الغرباء تقديرهم جزافاً. فواجب علينا أن نبرئ من هذه التهمة قومنا. ومن وسائل ذلك أن نحى ذكرى العظماء من أسلافنا، وأن ننصف اليوم من قد يكون التاريخ لم يعطهم كل ما يستحقون من إنصاف.

يذكر المؤرخون أن الشافعي المتوفى سنة ٢٠٤ قال:

"الليث أفقه من مالك، إلا أن أصحابه لم يقوموا به". وفي رواية عن الشافعي: "ضيعه قومه". وفي أخرى: "ضيعه أصحابه".

قال ابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ في كتابه المسمى "كتاب الرحمة الغيثية بالترجمة الليثية":

"لكنه ما صنف شيئاً من الكتب ولا دون أصحابه المسائل عنه، ولذلك قال الشافعي: ضيعه أصحابه، يعنى لم يدونوا فقهه كما دونوا فقه مالك وغيره، وإن كان بعضهم قد جمع منها شيئاً". (ص ٩).

وقول ابن حجر إن الليث لم يصنف شيئاً من الكتب، يخالفه ما يذكره ابن النديم المتوفى سنة ٣٨٥، في كتاب الفهرست، من أن الليث بن سعد "كتاب التاريخ" و "كتاب مسائل في الفقه".

وإذا كان قوم الليث بن سعد أو أصحابه قد ضيعوه على ما يقول الشافعي فلعلنا نحفظ اليوم بعض ما ضيعوا.

الليث بن سعد يكنى أبا الحارث، ومن المؤرخين من يقول: هو ليث بن سعد بن عبد الرحمن، وهو فيما يذكر ابن خلكان مولى بني فهم. وبنو فهم بطن من قيس. لذلك يقال مولى بني قيس.

ويقول أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣ في

كتاب تاريخ بغداد: "ليث بن سعد بن عبد الرحمن أبو الحارث، فقيه أهل مصر، يقال إنه مولى خالد بن ثابت بن ظاعن الفهمي. وأهل بيته يقولون: نحن من الفرس من أهل أصبهان. وروى عن الليث أنه قال مثل ذلك. والشهور أنه فهمي، ولد بقرقشندة، وهي قرية من أسفل أرض مصر". (ج ١٣ ص ٢).

وسياق الكلام يفيد أن المشهور كون الليث عربياً من "فهم". ونقل البغدادي رواية عن أبي مسلم صالح بن أحمد بن عبد الله العجلي عن أبيه قال: ليث بن سعد يكنى أبا الحارث، مصري فهمي ثقة". (ص ١٣).
قال الشيخ أبو العباس أحمد القلقشندي المتوفى سنة ٨٢١ في كتاب "صبح الأعشى":

"قلت ومن بلادها - أي القليوية - بلدتنا قلقشندة وهي بلدة حسنة المنظر غزيرة الفواكه، وإليها ينسب الليث بن سعد، الإمام الكبير. وقد ذكر ابن يونس في تاريخه أنه ولد بها. قال: وأهل بيته يذكرون أن أصله من فارس، وليس لما يقولونه ثبات عندنا. قال ابن خلكان: بفتح القاف وسكون اللام وفتح القاف الثانية والثين المعجمة وسكون النون وفتح الدال المهملة وبعدها هاء ساكنة - وهكذا هي مكتوبة في دواوين الديار المصرية. وأبدل ياقوت في معجم البلدان اللام راء، وهو الجارى على السنة العامة، وعليه جرى القضاعي فيما رأيته مكتوباً في خطه". (ج ٣ ص ٤٠٣).

قال القلقشندي بعد ذلك:

"وقال القضاعي في خطه في الكلام على دار الليث بالفسطاط: وكان له دار بقرقشندة بالريف، بناها فهدمها ابن رفاعة أمير مصر عناداً له، وكان

ابن عمه، فبناها الليث ثانياً، فهدمها، فلما كانت الثالثة أتاه آت في منامه فقال له: يا ليث ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين﴾ فأصبح وقد فلج ابن رفاعه، فأوصى إليه ومات بعد ثلاث.

وترجم له ابن خلكان بالأصبهاني، ثم قال في آخر ترجمته: ويقال إنه من قلقشندة. قلت: وما قاله ابن يونس أثبت، ويجب الرجوع إليه لأمرين: أحدهما أنه مصرى، وأهل البلد أخبر بحال أهل بلدهم من غيرهم. والثاني أنه قريب من زمن الليث، فهو به أدري، إذ يجوز أن يكون أصله من أصبهان ثم نزل أباه قلقشندة المذكورة، وولد بها وسكنها فنسب إليها، كما وقع في كثير من النسب. وإعادة داره بها بعد هدمها ثلاث مرات على ما تقدم ذكره في كلام القضاعى، دليل اعتناؤه بشأنها، وميله إليها. وحينئذٍ فلا منافاة بين النسبتين " ج ٣ ص ٤٠٣ - ٤٠٤ .

وهذا الذى يجوزه القلقشندى ليوفى بين أول كلام ابن خلكان وآخره يبعده ما نقله هو ن القضاعى، من أن ابن رفاعه كان ابن عم الليث.

وابن رفاعه المقصود هنا هو الوليد بن رفاعه بن خالد بن ثابت بن ظاعن الفهمى الذى ولى مصر سنة ١٠٩ وتوفى وهو وال عليها سنة ١١٧. والوليد بن رفاعه عربى صراح، من فهم، ليس فى نسبه خلاف، فإذا كان الليث ابن عمه فهو أيضاً عربى فهمى.

وإذا كان لابد لنا من ترجيح بين الآراء المتضاربة فى أن الليث بن سعد مولى أو عربى فإننا نميل على القول بأنه مولى، اعتماداً على أقدم المصادر التاريخية التى بين أيدينا. فأبو عبد الله محمد بن سعد كاتب الواقدى المتوفى

سنة ٢٣٠ يقول في كتاب الطبقات الكبير: "الليث بن سعد ويكنى أبا الحارث مولى قيس".

وأبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري المتوفى سنة ٢٤٠ يقول في كتاب المعارف: "الليث بن سعد، رضى الله تعالى عنه، هو مولى لقيس ويكنى أبا الحارث".

وقد ذكر من ترجموا الليث أنه قال:

"قال لي أبو جعفر المنصور: تلى لي؟ قلت: إني أضعف من ذلك، إني رجل من الموالى. قال: ما بك ضعف معي إلا ضعف بدنك؛ أتريد قوة أقوى مني؟ فأما إذا أبيت فدلني على رجل".

قالوا: وكان الأمر بمصر لا يقطعون أمراً دون الليث.

ورواية البغدادى:

"قال الليث: قال لي أبو جعفر: تلى مصر؟ قلت لا: يا أمير المؤمنين إني أضعف من ذلك، إني رجل من الموالى. فقال: ما بك ضعف معي، ولكن ضعفت نيتك في العمل عن ذلك لي".

ولد الليث بن سعد سنة ثلاث أو أربع وتسعين، ومولده بقلقشندة، التي هي قرية من مديرية القليوبية بمركز قليوب، وسمع علماء المصريين والحجازيين، وظهر منذ شبابه فضله.

روى ابن حجر العسقلانى عن يحيى بن بكير أنه قال: "سمعت شرحبيل بن يزيد يقول: أدركت الناس في زمن هشام بن عبد الملك وهم متوافرون، مثل يزيد بن حبيب، وعبيد الله بن أبى جعفر، وجعفر بن أبى

ربيعة والحارث بن يزيد، وابن هيرة، ومن يقدم مصر من علماء أهل المدينة ومن علماء أهل الشام للرباط، والليث يومئذ حدث شاب، وإنهم ليعرفون فضله ويقدمونه ويشار إليه. وقال يعقوب بن سفيان: سمعت يحيى بن بكير يقول: سمعت الليث يقول: رأيت يحيى بن سعيد الأنصارى وقد فعلت شيئاً من المباحثات، فقال: لا تفعل؛ فإنك إمام منظور إليك. قلت: ويحيى بن سعيد تابعى من شيوخ الليث".

وفى هذا دلالة على ما تميز به الليث منذ صباه من فضل ونبالة.

وروى ابن حجر أيضاً عن عمرو بن خالد قال: قلت لليث بلغنى أنك أخذت بركاب ابن شهاب الزهري. قال: نعم، للعلم، فأما لغير ذلك فلا، والله ما فعلته بأحد قط.

ونبل الليث بن سعد من أظهر صفاته، وقد وصفه بالنبل من ترجموا له منذ عهد بعيد. ففي طبقات ابن سعد:

"وكان سريراً من الرجال، نبيلاً سخيّاً، له ضيافة".

ورحل الليث إلى العراق أيضاً فأخذ عن علمائه ونشر علمه هناك.

ومات الليث - فيما يقول ابن سعيد في الطبقات - يوم الجمعة لأربع عشرة ليلة بقيت من شعبان سنة خمس وستين ومائة، في خلافة المهدي".

وكذلك يقول ابن قتيبة في كتاب المعارف: إنه مات سنة خمس وستين ومائة.

ويقول أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكندي المتوفى سنة ٣٥٠

في كتاب تاريخ مصر وولاتها وقضاتها عند الكلام على ولاية موسى بن

عيسى العباسي الثانية من قبل الرشيد، في يوم الاثنين من صفر سنة ١٧٥:

"وتوفى الليث بن سعد يوم الجمعة للنصف من شعبان سنة خمس وسبعين ومائة، وصلى عليه موسى بن عيسى". ص ١٣٤.

ويقول مثل ذلك الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد. وعلى هذا سائر من ترجموا لليث.

ولولا أن ابن سعد صرح بأن الليث مات في خلافة المهدي، والمهدي ولي الخلافة من سنة ١٦: إلى سنة ١٦٩ لحسبنا أن تحريف النساخ هو الذي جعل السبعين ستين. وقد ذكر المؤرخون أن الشافعي لقي الرشيد، والرشيد ولي الخلافة سنة ١٧٠.

روى عن لؤلؤ خادم الرشيد - كما ذكره ابن حجر - قال:

"جرى بين هارون الرشيد وبنت عمه زبيدة بنت جعفر كلام، فقال هارون: أنت طالق إن لم أكن من أهل الجنة! ثم ندم فجمع الفقهاء فاخلفوا، ثم كتب إلى البلدان فاستحضر علماءها إليه، فلما اجتمعوا جلس لهم، فسألهم فاحتلفوا، وبقي شيخ لم يتكلم وكان في آخر المجلس - وهو الليث بن سعد - قال: فسأله، قال: إذا أخلى أمير المؤمنين مجلسه كلمته. فصرفهم، فقالك يدني أمير المؤمنين. فأدناه، فقال أتكلم على الأمان؟ قال: نعم. فأمر بإحضار مصحف فأحضر، فقال: تصفحه يا أمير المؤمنين حتى تصل إلى سورة الرحمن فاقرأها. ففعل فلما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿ولن خاف مقام ربه جنتان﴾ قال: أمسك يا أمير المؤمنين، قل: والله. قال: فاشتد ذلك على هارون، فقال: يا أمير المؤمنين، الشرط أملك. فقال: والله! حتى فرغ اليمين. قال: قل إنى أخاف مقام ربي. فقال ذلك، فقال يا أمير المؤمنين، فهي جنتان وليس بجنة واحدة. قال: فسمعنا التصفيق والفرح من

وراء الستر، فقال له الرشيد: أحسنت. وأمر له بالجوائز والخلع، وأمر بإقطاع الجزيرة ولا يتصرف أحد بمصر إلا بأمره، وصرفه مكرماً.

وروى ابن حجر أيضاً عن الليث بن سعد أنه قال: "لما قدمت على هارون الرشيد قال لى: يا ليث، ما صلاح بلدكم؟ قلت: يا أمير المؤمنين، صلاح بلدنا إجراء النيل وصلاح أميرها، ومن رأس العين يأتى الكدر، فإذا صفا راس العين صفت العين. قال: صدقت يا أبا الحارث".

وذكر أبو عمر الكندى فى كتاب تاريخ مصر ولاتها وقضاتها، عند الكلام على أبى الطاهر عبد الملك بن محمد الحزمى، الذى ولى القضاء بمصر من قبل الهادى سنة سبعين ومائة.

"إن عمران الطائى صاحب البريد شفع إلى الحزمى فى خصم فكتب إليه الحزمى: ما أنتوالقضاء؟ عليك تدبر دوابك ويراذعها وكنس زبولها. فكتب إلى هارون يبغيه ويقول: إن الناس قد شكوه. وأتى كتاب هارون إلى داود بن يزيد بن حاتم، وكان يومئذ واليا على مصر، يأمره أن يوقف الحزمى للناس، فأقامه داود فأنى الناس عليه خيراً، وركب الليث بن سعد، وعاصم بن العلاء القاص، وعبد الله بن لهيعة إلى الأمير، فأنثوا عليه، فقال الحزمى لداود: قد جاءتنى فرجة فيها لباس العافية مما أنا فيه، ولست تصل رحمى بمثل إعفائى، وقد رضيت لك المفضل بن فضالة. فلم يزل به حتى أعفاه".

وليس لنا بعد هذه الدلائل إلا أن نوافق جمهرة المؤرخين على أن الليث بن سعد توفى سنة ١٧٥ وأن ما ذكره ابن سعد فى الطبقات غير صحيح.

ولما توفى الليث بن سعد فجع الناس فيه، وشيعوا جنازته إلى قبره فى جوع زاخرة، ودفن بالقرافة المعروفة الآن بقرافة الإمام الشافعى.

قال خالد بن عبد السلام الصدفي - كما في الرحمة الغيثية بالترجمة
الليثية: -

"جالست الليث بن سعد، وشهدت جنازته مع أبي فما رايت جنازة قط
بعدها أعظم منها، ورأيت الناس كلهم عليهم الحزن ويعزى بعضهم بعضاً،
فقلت لأبي: يا أبت كأن كل واحد من هؤلاء صحب الجنازة! فقال: يا بني،
كان عالماً كريماً، حسن العقل، كثير الإفضال، يا بني لا ترى مثله أبداً".
ويقول علي مبارك باشا في خططه:

"وكان قبره مسطبة، ثم بنى عليها هذا المشهد بعد سنة أربعين
وستمائة. وقيل إن الذي بناه ابن التاجر".

وقد فصل المقریزی ما كان من أمر هذا القبر منذ كان مسطبة إلى عهده،
وقال:

"ويجتمع بهذه القبة في ليلة كل سبت جماعة من القراء، فيتلون القرآن
الكریم تلاوة حسنة حتى يختموا ختمة كاملة عند السحر، ويقصد الميتم
عندهم للتبرك بقراءة القرآن عدة من الناس، ثم تفاحش الجمع وأقبل النساء
والأحداث والغوغاء فصار أمراً منكراً، لا ينصتون لقراءة ولا يتعظمون
بمواظب، بل يحدث منهم على القبور ما لا يجوز، ثم زادوا في التعدي حتى
حفرُوا ما هنالك خارج القبة من القبور، وبنوا مباني اتخذوها مراحيض
وسقايات ماء".

هذا ما كان في عهد المقریزی المتوفى سنة ٨٤٥. ولسنا ندرى ما يفعل
الناس اليوم عند قبر الإمام العظيم.

يعنى أكثر المترجمين لليث بأمره وفتيهاً . وابن سعد يقول :

" وكان ثقة كثير الحديث صحيحه وكان قد اشتغل بالفتوى فى زمانه بمصر " . وبحسبه ان يكون من مشايخ البخارى ومسلم . أما فقهه فيقول صاحب الفهرست : " الليث بن سعد من أصحاب مالك وعلى مذهبه ، ثم اختار لنفسه ، وكان يكتب مالكا ويسأله " .

وقال ابن حجر :

" وقد ذكر الشيخ أبو إسحاق فى الطبقات أن علم التابعين من أهل مصر تنهى إلى الليث بن سعد . قال : وقال ابن وهب : ومسائل الليث تقرأ عليه ، فمرت به مسألة فاستحسنوها ، فقال رجل : ما أحسن ما قال الليث ، كأنه كان يسمع مالكا فيجيب . فقال ابن وهب : بل لعل مالكا كان يسمع الليث يجيب فيجيب ، والله الذى لا إله إلا هو ما رأينا أحداً قط أفقه من الليث " .

ورواياتهم مختلفة فى المفاضلة بين مالك بن أنس والليث بن سعد ، ومن الناس من يسوى بينهما . ففى كتاب مناقب سيدنا الإمام مالك للشيخ عيسى ابن مسعود الزواوى :

" وقال ابن وهب : لقيت ثلاثمائة وستين عالماً ، ولولا مالك بن أنس والليث بن سعد لضللت فى العلم " .

وإنما وقعت المفاضلة بين الليث بن سعد وبين مالك بن أنس دو غيره من فقهاء العصر لأن الليث بن سعد معدود من أصحاب الحديث . وقد ذكره ابن قتيبة فى أصحاب الحديث دون أصحاب الرأى . ومالك بن أنس يعتبر زعيم أصحاب الحديث .

وعندى أن الليث على أنه أقرب إلى سمت أهل الحديث في زهده
وورعه، وأقرب إلى أهل الحديث في كثرة روايته وحفظه. كان طرازاً وحده
بين أهل الحديث، وهو الذى مهد للشافعى ذلك المنهج الوسط بين أصحاب
الرأى وأصحاب الحديث.

وروى عن الشافعى أنه قال:

"ما فاتنى أحد فأسفت عليه ما أسف على الليث بن سعد، وابن أبى
ذئب". ويروى أن الشافعى وقف على قبر الإمام الليث وقال: "لله درك يا
إمام، لقد حزت أربع خصال لم يكملن لعالم: العلم، والعمل، والزهد،
والكرم".

كان عهد الليث عهد الدولة العباسية فى نشأتها، وقد نهضت الدراسات
الفقهية لحاجة الدولة إلى قانون شرعى منظم، وظهر تميز المذهبين: مذهب
أهل الحجاز أهل الحديث، الذين يعتمدون فى أحكامهم على السنن والآثار،
ويستكثرون من الروايات والأخبار، ولا يلجأون إلى الرأى إلا قليلاً؛ ومذهب
أهل العراق أهل الرأى، الذين كان حظهم من رواية الحديث قليلاً وكان
اعتمادهم على الرأى كثيراً. وكان كل من هؤلاء وهؤلاء يقصد إلى استنباط
الأحكام وتدوينها، تيسيراً وتنظيماً لأمر القضاء وسياسة الدولة.

وقد غلب على أهل الحديث الاهتمام بأن تكون سياسة الناس وأعمالهم
موافقة لظاهر النصوص من غير كبير عناية بأسرار الأحكام ومرامى النصوص.
أما أهل الرأى فشغلهم تفريع المسائل وفرض الفروض ليجدوا لها حلاً
بدقيق النظر ولطف الحيلة.

وجاء الليث بن سعد فجعل همه أن يوجه الفقه وجهة جديدة تخرجه من دائرة التخصص بخدمة النظم الحكومية، وتخلصه من تساهل أهل الرأي وتشدد أهل الحديث.

وفى كتاب مختصر جامع بيان العلم وفضله:

"وكان الليث بن سعد كثيراً ما يقول لأصحاب الحديث: تعلموا الحلم قبل العلم".

وقد رأينا كيف أفتى الليث بن سعد هارون الرشيد في رد طلاقه، مراعيًا في ذلك الناحية الروحية من قبل أن يراعى ظواهر الأحكام.

وفى كتاب الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء:

"... أخبرني يحيى بن عبد الله بن بكير قال: سمعت الليث بن سعد يقول: كنت أسمع بذكر أبي حنيفة وأتمنى أن أراه، فكنت يوماً في المسجد الحرام فرأيت حلقة عليها الناس متقصفين، فأقبلت نحوها فرأيت رجلاً من أهل خراسان أتى أبا حنيفة فقال: إني رجل من أهل خراسان كثير المال، وإن لى ابناً ليس بالمحمود وليس لى ولد غيره. فذكر نحوه سواء وزاد، قال الليث: فوالله ما أعجبنى قوله بأكثر مما أعجبنى سرعة جوابه".

والقصة المشار إليها أن الرجل قال يا أبا حنيفة، قصدتك أسألك عن أمر قد أهمنى وأعجزنى. قال: ما هو؟ قال: لى ولد ليس لى غيره، فإن زوجته طلق، وإن سريره أعتق، وقد عجزت عن هذا فهل من حيلة؟ فقال له للوقت: اشتر الجارية التى يرضاها هو لنفسك ثم زوجها منه فإن طلق رجعت مملوكتك إليك، وإن أعتق أعتق ما لا يملك.

وإذا كان الليث قد أعجب بقول أبي حنيفة وبسرعة جوابه فما أظنه كان يرى أن يجيب هذا الجواب، ولا أن يسرع ذلك الإسراع.

والمتتبع لما يرويه الليث من الأحاديث يجد فيها كثيراً مما يتعلق بحسن السلوك وكمال الخلق، إلى جانب ما يتعلق بأحكام الحدود والمعاملات. وقد جمع ابن حجر أربعين حديثاً من عوالم الحديث مروية عن الليث منها:

كان رسول الله ﷺ ينهى إذا كان ثلاثة نفر أن يتناجى اثنان دون واحد. ومنها: أن رسول الله ﷺ قال: لا يقيم أحدكم الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه.

ومنها: أن امرأة وجدت في بعض مغازي رسول الله ﷺ مقتولة، فأنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان.

ومنها: أن رسول الله ﷺ قال: ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم، وامرأة الرجل راعية على بعلها وولده وهي مسئولة عنهم، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه، ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته.

ومنها: أن رسول الله ﷺ أمر رجلاً كان يتصدق بالنبل في المسجد ألا يمر بها إلا وهو آخذ بنصولها.

ومنها: أن النبي ﷺ أدرك عمر بن الخطاب في ركب وعمر يحلف بأبيه، فناداه: إن الله عز وجل ينهاكم أن تحلفوا بأبائكم، فمن كان حالفاً فليحلف بالله وإلا فليصمت.

ومنها: أن رسول الله ﷺ قال: لا يخطب أحدكم على خطبة أخيه.

وهذا الذى نهض به الليث من توجيه الحركة الفقهية إلى الناحية الخلقية الرحية، كان من حقه أن يجعل الليث معدوداً فى أئمة الصوفية الذين نهضوا بالتصوف نهضته الأولى، ونهضة التصوف الأولى كانت أخلاقية.

ومن عجب أن عبد الوهاب الشعرانى المتوفى سنة ٩٧٣ وهو مصرى من قلقشندة بلد الليث، لم يذكر موطنه فى كتابه الطبقات الكبرى، وهو قد ذكر أبا حنيفة ومالكاً والشافعى وابن حنبل، وغيرهم ممن لم يكونوا أقرب إلى التصوف من الليث.

ولم يقف علم الليث عند حد الفقه والحديث، بل كان محيطاً بأنواع المعارف المتداولة فى ذلك الزمن. وفى كتاب حسن المحاضرة للسيوطى المتوفى سنة ٩١١.

"وقال يحيى بن بكير: ما رأيت أحداً أكمل من الليث، كان فقيه النفس، عربى اللسان، يحسن القرآن والنحو، ويحفظ الحديث والشعر، حسن المذاكرة".

بل هو قد كان فوق ذلك مؤرخاً حجة خصوصاً فيما يتعلق بفتح مصر وتاريخها الإسلامى إلى عهده. بل له روايات تتصل بتاريخ مصر قبل الإسلام كروايته فى منابع النيل التى ذكرها ياقوت فى معجم البلدان، وهى رواية إن لم تدون لنا حقيقة تاريخية ثابتة فهى تدون أسطورة تمثل صورة التفكير فى بعض العصور.

وفى كتاب تاريخ مصر وولاتها وقضاتها للكندى روايات عن الليث كثيرة، فى ولاية مصر وقضاتها، وما جرى من الأحداث فيها منذ فتحها.

وفى كتاب معجم البلدان لياقوت روايات عن الليث عديدة فى تحقيقات
جغرافية ولغوية .

وكل ذلك يدل على سعة اطلاع الليث وتميزه فى فنون المعارف .
وقد ضاعت معارفه فيما ضاع من آثار الأقدمين إلا ما نجده منشوراً فى
كتب مختلفة .

واستيفاء البحث فى ترجمة الليث يقتضى جمع هذه المنشورات وتمحيصها
وترتيبها . ونرجو أن ينشط لهذا البحث النافع بعض أهل الجلد من شبابنا .
لم يتول الليث شيئاً من أمر الحكم ، وقد عفا عن الولاية وعفا عن
القضاء . وفى كتاب حسن المحاضرة .

"قال ابن كثير: وقد حكى بعضهم أنه ولى القضاء بمصر" ، وهو غريب
على الليث بن سعد كان من جلال القدر ورفعة المنزلة بحيث يلجأ إلى زايه
ولاية مصر وقضاتها .

قال الكندى فى تاريخ القضاة :

سمعت بكر بن منصور يقول : قدم علينا كتاب أمير المؤمنين مروان فى
حوثرة ابن سهيل : أن قد بعثت إليكم رجلاً أعرابياً بدويّاً فصيح اللسان ، من
حاله ومن حاله كذا ، فأجمعوا له رجلاً فيه مثل فضالة ، يسده فى القضاء
ويصوبه فى النظر ، ويسدد فى كذا وكذا . قال بكر بن منصور : فأجمع الناس
كلهم يومئذ على الليث بن سعد ، وفيهم معلماه يزيد بن أبى حبيب وعمر بن
الحارث .

وفى حسن المحاضرة :

"وقال الذهبي في العبر: كان نائب مصر وقاضيها من تحت أوامر الليث وكان إذا رابه من أحد شيء كاتب فيه فيعزل؟ وقد أراد المنصور أن يوليه إمرة مصر فامتنع".

وكانت مشورة الليث ذات أثر ظاهر في سير الحكم وفي تنظيمه.

ذكر ابن إياس في تاريخ مصر: في حوادث سنة ٩٢٨:

"وقيل إن الإمام الليث بن سعد رضى الله عنه هو الذى دون ديوان الأحباس فى أيامه وأفرد للرزق الأحباسية ديوانًا يختص بها دون ديوان الجيش، واستمر ذلك باقياً من بعد الإمام الليث إلى الآن، حتى جاء فخر الدين بن عوض فنقض ذلك الأمر الذى كان على جهات البر والصدقات وأبطل أمر الرزق الأحباسية وأدخلها الذخيرة، وأبطل ما كان صنعه الليث بن سعد رضى الله عنه" ج ٣ ص ٣٠٤.

وفى كتاب تاريخ مصر وولاتها وقضاتها للكندى عند الكلام على ولاية موسى بن عيسى بن موسى العباسى الأولى بمصر فى سنة إحدى وسبعين ومائة:

"ثم أذن موسى بن عيسى للنصارى فى بنى الكنائس التى هدمها على بن سليمان، فبنيت كلها بمشورة الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة، وقالوا: هو من عمارة البلاد. واحتجا أن عامة الكنائس التى بمصر لم تبني إلا فى الإسلام فى زمن الصحابة والتابعين.

بقى جانب من جوانب الليث بن سعد لم تعرض له وما أحسب أحداً من المترجمين لليث أغفله، ذلك هو أمر غناه، فقد كان الليث موفور الغنى

وكان سخياً جواداً، وكان زاهداً ورعاً. واختلفوا في تقدير ثروته، فقائل أن الليث بن سعد كان يستغل خمسة آلاف دينار في كل سنة، وقائل أكثر من ذلك، حتى بلغ بها بعضهم ثمانين ألف دينار، بل قال بعضهم إن دخل الليث بن سعد كان مائة ألف دينار في كل عام، وكلهم متفقون على أن الليث لم يجب عليه قط زكاة، بل يقول بعضهم: كانت تأتي عليه السنة وعليه دين. كان منفقاً يهب الألوفاً. وأعطى ابن لهيعة ألف دينار، وأعطى مالك بن أنس ألف دينار، وأعطى منصور بن عمار ألف دينار وجارية تساوي ثلاثمائة دينار.

وجاءت امرأة إلى الليث فقالت: يا أبا الحارث إن ابناً لى عليل، واشتهى عسلاً. فقال: يا غلام، اعطها مرطاً من عسل. والمرط عشرون ومائة رطل.

كانت لليث ضياع في الجزيرة وفي غير الجزيرة، وكانت له دور في الفسطاط وفي قلقشندة، وكانت له فلك تجرى في البحر بأمره. وفي تاريخ بغداد:

"سمعنا أبا رجاء قتيبة يقول: قفلنا مع الليث بن سعد من الإسكندرية وكان معه ثلاث سفائن: سفينة فيها نطبخه، وسفينة فيها عياله، وسفينة فيها أضيافه.

وفي كتاب الخطط لعلى مبارك باشا^(١):

"وكانت له قرية بمصر يقال لها الفرما، مهما حمل إليه من خراجها يجعله صرراً ويجلس على باب داره ويعطى من مر به من المحتاجين صرة صرة حتى لا يدع من ذلك إلا اليسير.

(١) انظر (قلقشندة) في الخطط التوفيقية ج ١٤ ص ١٠٨.

وحمل إلى بغداد ليفتى الرشيد فى زوجته زبيدة، وأمر له بخمسة آلاف دينار، فردها وقال: ادفعها لمن هو أحوج منى. وقال يحيى بن بكير: كانوا يزدحمون على باب الليث فيتصدق عليهم فلا يترك أحداً. وتصدق وأنا معه على سبعين بيتاً من الأرامل، ثم بعث غلاماً له بدرهم فاشتري به خبزاً وزيتاً ثم رجعت إلى بابه فرأيت عنده أربعين ضيفاً فأخرج إليهم اللحم والحلوى، فلما أصبح قلت لغلامه: بالله عليك لمن الزيت والخبز؟ قال: لسيدى. فتعجبت من كونه يطعم أضيافه اللحم والحلوى وهو يأكل الخبز والزيت.

ومن مناقبه أن رجلاً من أهل مصر صودر فى أيامه، ونودى على داره فبلغت أربعمائة درهم، فاشتراها الليث، وبعث يونس بن عبد الأعلى الصدفى يأخذ المفاتيح، فوجد فى الدار أيتاماً وعائلة، فقالوا: بالله عليك اتركنا إلى الليل حتى ننظر قرية نذهب إليها. فجاء إلى الليث وأخبره بالقصة فبكى وقال له: عد إليهم وقل لهم: الدار لكم، ولكم ما يقوم بكم فى كل يوم".

وكما كان الليث بن سعد إماماً فى العلماء وعظيماً فى الكرماء، فقد كان ابنه شعيب بن الليث عالماً كريماً وهو مدفون إلى جواره. وفى خطط على مبارك باشا: "قال ابن أبى الدنيا: حج شعيب بن الليث سنة فتصدق بمال عظيم، فمر عليه رجل من العلماء فسأل عنه فقيل له هذا العالم الكريم ابن الكريم. ولما دخل دمشق جاءه رجل وقال له: إن عبد أبىك معى، لأبيك تجارة ألف دينار وأنا الآن فى الرق، فخذ مال أبىك وأعتقنى إن شئت. فأعتقه وأعطاه المال. قال الخطابى: فلا أدري أيهما أحسن: العبد فى إقراره بالمال والرق، أم السيد حيث أعتقه وأعطاه المال".

هذه نظرة عجلى فى حياة عظيمة لإمام من أسلافنا عظيم . وأرجو أن
أكون وفقت لتوجيه الناشئين إلى درس سيرة من أكرم السير سيرة الرجل الذى
ذكره ابن حبان فى الثقات فقال: " كان من سادات أهل زمانه ، فقهاً وورعاً ،
وعلماً وفضلاً وسخاء " .



الشيخ محمد عبده

وجهته في الإصلاح الديني^(١)

- ١ -

الدور الأول

قد يكون خير ما نحى به أستاذنا المرحوم الشيخ محمد عبده في يوم تذكاره وفاته^(٢) هو أن ندرس جانباً من جوانب حياته العظيمة.

ونختار وجهته في الإصلاح الديني، لأنها مظهر شخصيته، ومركز الدائرة في تفكيره وعمله.

كان الشيخ محمد عبده مصلحاً يسعى للتوفيق بين العقل والشرع، وقد قرر ذلك من رثوه من ترجموا لحياته:

قال إسماعيل صبرى:

ووقفت بين الشرع والعقل بعدما
قد اعتقد الإلfan أن لا تلاقيا
وقال حفى ناصف:

ويذكر العلماء أن لا يغمضوا
عما اقتضاه زمانهم أبصارا
ويظل بالإصلاح مغرى، كلما
وجد السبيل إلى صلاح سارا

(١) نشرت هذه المقالات الخمس في جريدة السياسة في ٢٦ ذى القعدة سنة ١٣٤١ (١١ يوليه

سنة ١٩٢٣) إلى ٣ ذى الحجة سنة ١٣٤١ (١٧ يوليه سنة ١٩٢٣)

(٢) توفى الأستاذ برمل الإسكندرية في الساعة الخامسة من مساء الثلاثاء ٨ جمادى الأولى

سنة ١٣٣٣ هـ (١١ يوليه سنة ١٩٠٥ م).

وقال حافظ إبراهيم:

ووقفت بين الدين والعلم والحجبا فاطلعت نوراً من ثلاث جهات
وقالت باحثة البادية:

والعلم والدين للجنسين مطلب فليس يختص جنس منهما بهما
فتحن في الحزن شاطرنا الرجال كما فى الاستفادة شاطرناهما قدما

وقال جورجى زيدان فى ترجمة الشيخ، فى الجزء الأول من كتاب -
تراجم مشاهير الشرق فى القرن التاسع عشر " :

" فلما صرح الشيخ محمد عبده بحاجة الإسلام إلى الإصلاح انقسم
المسلمون إلى فئتين ترى بقاء القديم على قدمه، وهم حزب المحافظين، وفئة
ترى حل القيود القديمة وإطلاق حرية الفكر، والرجوع إلى الصحيح من
قواعد الدين، ونبذ ما خالطه من الاعتقادات الدخيلة - وكان رحمه الله زعيم
هذه الفئة يناضل عن مبادئها بلسانه وقلمه، وبكل جارحة من جوارحه وكانت
مساغيه ترمى إلى غرضين رئيسيين: الأول تنقية الدين الإسلامى من الشوائب
التي طرأت عليه، والثانى تقريب المسلمين من أهل التمدن الحديث؛ ليستفيدوا
من ثمار مدنيته علمياً وصناعياً وتجارياً وسياسياً " .

ونحن نرجع إلى الأستاذ نفسه فى بيان وجهته فى الإصلاح الدينى نقلا
عن المجلد الثامن من المنار:

" وارتفع صوتى بالدعوة إلى أمرين عظيمين: الأول تحرير الفكر من قيد
التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف، والرجوع
فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى، واعتباره من موازين العقل البشرى التي

وضعها الله لترد من شططه وتقلل من غلظه وخبطه؛ لتتم حكمة الله في حفظ نظام العالم الإنساني. وأنه على هذا الوجه يعد صديقاً للعلم، باعثاً على البحث في أسرار الكون، داعياً إلى احترام الحقائق الثابتة، مطالباً بالتعويل عليها في أدب النفس وإصلاح العمل.

وكل هذا أعده أمراً واحداً، وقد خالفت فيه رأى الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة: طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم، وطلاب فنون هذا العصر ومن هو في ناحيتهم".

وغذا تتبعنا دعوة الأستاذ إلى الإصلاح الديني منذ ظهورها في آثاره المكتوبة نجد بدايتها في الفصول التي نشرها في جريدة الأهرام سنة ١٢٩٤ هـ ١٨٧٧ م بعنوان: (العلوم الكلامية والدعوة إلى العلوم العصرية).

في ذلك العهد كان التعليم النظامي انتشر في وادى النيل ولفت الناس حتى أهل الأزهر إلى العلوم الحديثة.

ويبين لنا منزلة هذه العلوم يومئذ في نظر الأزهرين ما نسخه لنا بعض أصحابنا من فتاوى المرحوم الشيخ الأنباى المخطوطة المحفوظة بمكتبته، ونصه: "سئل حفظه الله تعالى بما صورته: ما قولكم رضى الله عنكم - هل يجوز تعلم المسلمين للعلوم الرياضية، مثل الهندسة والحساب والهيئة والطبيعات وتركيب الأجزاء المعبر عنه بالكيمياء، وغيرها من سائر المعارف .. الخ؟"

ولا نريد أن نطيل بذكر هذه الفتوى المؤرخة غرة ذى الحجة سنة ١٣٠٥ هـ فبحسبنا أن نعرف أن تعلم الرياضيات كان محتاجاً في ذلك الزمن إلى رخصة من شيخ الإسلام.

أما الشيخ محمد عبده فقد كان اتصل بالسيد جمال الدين الأفغانى منذ سنة ١٢٨٨ هـ سنة ١٨١٨م، ولم يكن نظر السيد إلى هذه العلوم كنظر الأزهريين، لذلك كان يدرس مدة مقامه بمصر المنطق والفلسفة والهيئة فى منزله لطلاب الأزهر، دون أن يفكر فى أن الأمر يحتاج إلى استفتاء وإفتاء.

وفى العدد التاسع من السنة الثانية من مجلة "كاوه" الفارسية التى تنشر فى برلين، أن السيد جمال الدين ورد على بوشير فى سنة ١٣٠٣ ونزل فى منزل الحاج أحمد خان، وأقام ثلاثة أشهر عنى فيها بتعليم ابنه محمد على خان المقلب بسديد السلطنة. وكان السيد يشير على تلميذه بقراءة كتب فى الجغرافيا وعلم الهيئة، وسيرة نابليون، وجلستان للسعدى، وكتاب كليلة ودمنة، وجرائد مصر.

لا جرم كان من أثر التصادم فى نفس الشيخ محمد عبده بين ما أحدثته دروس جمال الدين وأثر الوسط الأزهرى، أن كتب بحماسة تنوء بأسلوبه الغض، مقال الأهرام الذى يقول فيه:

فمن أعجب ما رأيناه فى هذه الأيام، أن بعض طلبة العلم الكرام. قد تحركت إلى المعالى عمته، فأخذ فى دراسة بعض الكتب المنطقية والكلامية... فلما سمع بذلك بعض أحبائه وأصفيائه وأقربائه.. اهتز واضطرب، وعجب كل العجب، وأخذ الحزن على ذلك الطالب ما شاء الله أن يأخذه، وأوسع لذلك الطالب النصيحة. وبإلهام من فضيحة أى فضيحة! قائلاً: كيف تدرس علوم الضلالات حتى تقع فى الشبهات.. وليت شعرى إذا كان هذا حالنا بالنسبة إلى علوم قد أرضعت ثدى الإسلام وغذيت بلبانه وترتبت فى حجرة.. فما حالنا بالنسبة إلى علوم جديدة مفيدة هى من لوازم حياتنا فى

هذه الأزمان . . فعليتنا أن ننظر في أحوال جيراننا من الممالك والدول . وها نحن بعد النظر لا نجد سبباً لترقيهم في الثروة والقوة إلا ارتقاء المعارف والعلوم مفي ماينهم . . فبإذن أول واجب علينا هو السعى بكل جد واجتهاد في نشر هذه العلوم في أوطاننا " .

وبعد هذا الفصل المنشور في جريدة الأهرام لعامها الأول نجد للشيخ محمد عبده في الجريدة الرسمية أيام توليه تحريرها سنة ١٢٩٧ هـ ١٨٨٠ م مقالا في حكم الشريعة في تعدد الزوجات، جاء فيه:

"أبعد الوعيد الشرعي وذلك الإلزام الدقيق الحتمي، الذي لا يحتمل تأويلا ولا تحويلا، يجوز الجمع بين الزوجات عند توهم القدرة على العدل فضلا عن تحققه؟ فكيف يسوغ لنا الجمع بين نسوة لا يحملنا على جمعهن إلا قضاء شهوة فانية، واستحصال لذة وقتية، غير مبالين بما ينشأ عن ذلك من المفاسد ومخالفة الشرع الشريف؟! "

ونجد أيضاً للأستاذ في الجريدة الرسمية في البدع كالأذكار المصحوبة بالطبول، والاجتماعات المعروفة بالحضرات، وكبدعة الدوسة التي يقول فيها:

"وهي أن ينطح الناس على الأرض مصطفين أحدهم إلى جانب الآخر ثم يعلو أحد المشايخ على ظهورهم بحصان يدوسهم واحداً بعد واحد حتى ينتهي إلى آخرهم . . .

خصوصاً وأن الدوسة وأمثالها من أنواع البدع لم يرد لها نوع مشابه ولا مماثل في السنة النبوية الغراء، حتى يلتمس أحد موافقتها ولو بطريق التشبيه على بعد. وأما دعوى أنها من الكرامات فهي باطلة عند أهل السنة

والجماعة، فإنهم نصوا في كتب التوحيد على أن من شروط الكرامة أن لا
تصير عادة يتعاطاها من يريد إظهارها على حسب إرادته. فإن صارت كذلك
كأكل كل النار، وضرب السلاح، والدوسة ونحوها، التي يتعاطاها كل من
يأخذ عهداً على طريقة الرفاعي أو السعدى، أو يتولى مشيخة السعدية أيا
كان، فلا تكون من قبيل الكرامة، بل تعد من الخيل المذمومة".

هذه هي باكرة الإصلاح الدينى الذى توجهت له هممة الأستاذ فى بداية
أمره، وهو نوع من الإصلاح العملى، مرجعه إلى نصر العلوم الحديثة على
خصوصها من أهل الدين، وتهذيب نظام العائلة بوضع قيود لتعدد الزوجات،
ومحاربة البدع التى ليست إلا صوراً دينية شوهاء.

وجدير بالعهد الذى كان الخديوى إسماعيل يدفع فيه الأمة دفعاً فى
سبيل المدنية الحديثة القائمة على العلم والجمال أ، يلهم نفساً صالحة كنفس
الشيخ عبده السعى فى تذليل ما يقوم بين يدي العلم من العقبات، وإزالة ما
يشوه حياتنا من البدع المنسوبة إلى الدين.

الدور الثاني

حدثت الثورة العرابية ونفى الأستاذ الشيخ محمد عبده من مصر، ثم التقى بالسيد جمال الدين الأفغانى فى باريس ليصدرا جريدة العروة الوثقى معاً فى سنة ١٣٠١ هـ ١٨٨٤ م.

وكانت حركة الإصلاح التى يجاولها جمال الدين الأفغانى مستعينا بتلميذه ترمى إلى تلخيص دول الإسلام من النفوذ الأوروبى مادية وسياسية، والعمل على رقيها الداخلى المستقل بإيجاد النظم الدستورية الحرة فيها ثم جمع شتاتها عمالك مستقلة متحدة تحت لواء خليفة واحد، مكونة لدولة قوية قادرة على صد العدوان الخارجى.

قال صاحب مجلة المنار فى ترجمته للشيخ محمد عبده فى المجلد

الثامن:

«حدثنى أنه قال فى أوروبا: إن هذه السياسة لا يأتى منها خير لأن تأسيس حكومة إسلامية عادلة مصلحة لا يتوقف على إزالة الموانع الأجنبية فقط.

فخير لنا أن نذهب معاً إلى مجهل من مجاهل الأرض لا سلكان للسياسة فيه، ونحاول تربية أولاده على ما نحب، فإذا تيسر لنا تربية عشرة رجال يبذلون أنفسهم لخدمة الأمة لا يصددهم عن ذلك الجشوم فى وطن، والإخلاد إلى الأهل والسكن، بل يكون همهم الضرب فى الأرض لتربية مثلهم على ما ربوا عليه، فلا يبعد أن يربى الواحد منهم عشرة، فيكون لنا

فى زمن قريب مائة رجل يعملون للإسلام، والرجال هم الذين يعلمون كل شىء، فقال السيد: إنما أنت مشبط، قد شرعنا فى عمل فلا بد من المضى فيه حتى يتم أو نعجز".

ويدل هذا على أن الشيخ محمد عبده لم يكن مملوء النفس بالأمل فى الإصلاح السياسى القائم على تحريك العواطف الدينية، هذا النوع من الإصلاح الذى كان ملء السيد جمال الدين، ما يسعى له بتأليف الجمعيات السرية فى بلاد الإسلام المختلفة، وإصدار جريدته وبث أعوانه.

على أن فكرة أستاذنا فى الإصلاح الدينى التى كانت قبل عهد العروة الوثقى، محلية تلهمها حاجات البلاد المصرية، استحوالت إلى فكرة أكبر وأشمل بحكم النظر فى شئون المسلمين فى الأقطار المختلفة، ونعرف أسباب انحطاطهم، والإمام بجملة عقائدهم وآثارها فى أعمالهم.

كل ذلك مع ما يمدده من فطة شيخنا وتربيته الدينية وجهة إلى دعوة الإصلاح الدينى بمعناها الكامل، التى بلغت شأوها منذ دخل الأزهر ونقل الإفتاء عام ١٨٩٩ م، فأصبح للناس إماماً.

ويقول الأستاذ فيما كتبه رداً على هانوتو:

"مقصد الجميع ينحصر فى استعمال ثقة المسلم بدينه فى تقويم شئونه، ويمكن أن يقال: إن الغرض الذى يرمى إليه جميعهم إنما هو تصحيح الاعتقاد، وإزالة ما طرأ عليه من الخطأ فى فهم نصوص الدين، حتى إذا سلمت العقائد من البدع تبعها سلامة الأعمال من الخلل والاضطراب، واستقامت أحوال الأفراد واستضاءت بصائرهم بالعلوم الحقيقية، دينية ودنيوية، وتهذيب أخلاقهم بالملكات السليمة. . . وهذه سبيل لمريد الإصلاح

فى المسلمىن لا مندوحة عنها؛ فإن إتيانهم من طريق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين يحوجه إلى إنشاء بناء جديد ليس عنده من مواده شىء، ولا سهل عليه أن يجد من عماله أحداً. وإذا كان الدين كافلاً بتهذيب الأخلاق وصلاح الأعمال وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها، ولأهله من الثقة به ما بيناه، وهو حاضر لديهم، والعناء فى إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إمام لهم به. فلم العدول عنه إلى غيره؟".

فالشيخ يعتقد أن المسلمىن ابتدعوا فى عقائد دينهم ما ليس منها وأخطأوا فى فهم النصوص الدينية، فكان لابد لدعوته الإصلاحية من تمحيص العقائد وتفهمهم النصوص على وجهها. لذلك عنى بمدرسة التوحيد، والتأليف فيه، واشتغل بتفسير القرآن الكريم درساً وكتابة.

يرى الأستاذ أن رد الناس إلى قواعد الدين وأحكامه على ما كان فى بدايته محصاً مما عرض عليه هو خير ما يوجههم إلى منتهى الكمال الإنسانى ويسمو بهم عن ضروب الشحناء والمنازعات، ويمحو بينهم أسباب الفرقة والخلاف.

يقول الأستاذ فى كتاب "الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية":

"الدين دين الله، وهو دين واحد فى الأولين والآخرين لا تختلف إلا صوره ومظاهره، أما روجه وحقيقة ما طولب به العالمون أجمعون على ألسن الأنبياء والمرسلين، فهو لا يتغير، إيمان بالله وحده وإخلاص له فى العبادة، ومعاونة الناس بعضهم بعضاً فى الخير، وكف أذاهم بعضهم عن بعض ما قدروا".

يقول الأستاذ في كتاب كتبه إلى قس إنكليزي خطب في لندرة مييناً
محاسن الإسلام:

"ونستبشر بقرب الوقت الذي يسطع فيه نور العرفان الكامل، فنهزم له
ظلمات الغفلة، فتصبح الملتان العظيمتان المسيحية والإسلام وقد تعرفت كل
منهما إلى الأخرى وتصافحتا مصافحة الوداد، وتعانقتا معانقة الألفة فتعمد
عند ذلك سيوف الحرب التي طالما انزعجت لها أرواح الملتين . .

وإنا نرى التوراة والإنجيل والقرآن ستصبح كتباً متوافقة، وصحفاً
متصادقة، يدرسها أبناء الملتين ويوقرها أرباب الدينين، فيتم نور الله ويظهر
دينه الحق على الدين كله ."

كان الشيخ مؤمناً بنجاح دعوته إيماناً لا يزعه ريب، فهو يقول في
كتاب الإسلام والنصرانية:

"قد وعد الله بأن يتم نوره ويظهره على الدين كله فسار في سبيل
التمام والظهور على العقائد الباطلة أعواماً، ثم انحرف به أهله عن سبيله
وصاروا به إلى ما يرون ونرى، ولن ينقضى العالم حتى يتم ذلك الوعد
ويأخذ الدين بيد العلم ويتعاونوا على تقويم العقل والجدان . . ولا بد أن ينتهي
أمر العالم إلى تأخى العلم والدين على سنة القرآن والذكر الحكيم . . وعند
ذلك يكون الله قد أتم نوره ولو كره الكافرون، وتبعهم الجامدون القانطون.
وليس بينك وبين أعدك به إلا الزمان الذي لا بد منه في تنبيه الغافل، وتعليم
الجاهل، وتوضيح المنهج، وتقويم الأعوج ."

ومن أجل ثقة الأستاذ بدعوته وإيمانه بأنها حق يؤيده البرهان، وأنها
سبب سعادة وصلاح للبشر لا شقاق وخصام. كان ينعى على المسلمين

ولعلمهم بالتفكير والتفسيق، ويرى ذلك من وهن عقائدهم وضعف المزاج الدينى فيهم، ويبرئ الدين نفسه من تلك الخلة.

يقول فى كتاب الإسلام والنصرانية:

هلا ذهبت من هذين الأصليين إلى ما اشتهر بين المسلمين، وعرف من قواعد دينهم، وهو: إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الإيمان من وجه واحد، حمل على الإيمان، ولا يجوز حمله على الكفر. فهل رأيت تسامحاً مع أقوال الفلاسفة والحكماء أوسع من هذا؟ وهل يليق بالحكيم أن يكون من الحمق بحيث يقول قولاً لا يحتمل الإيمان من وجه واحد من مائة وجه؟ ...

لا أكاد أخطئ القارئ إذا زعم أن المسلم استفاد اسم زندقة وتزندق ومتزندق وزنديق، من فضل ما علمه جيرانه إذا كانوا يقولون هرتقة وتهريق وهو هرتوفى، أو ما يمثل ذلك؛ أو زعم أن قد فشت فى المسلمين سرعة التكفير بطرى العدوى من أهل الملل المتشدة .. متى أولع المسلمون بالتفكير والتفسيق، ورمى زيد بأنه مبتدع، وعمر بأنه زنديق؟

أشرنا فى ما سبق إلى مبدأ هذا المرض، ونقول الآن: إن ذلك بدأ فيهم عندما بدأ الضعف فى الدين يظهر بينهم، وأكلت الفتنة أهل البصيرة من أهله .. وتولى شئون المسلمين جهالهم وقام بإرشادهم فى الأغلب ضلالهم. فى أثناء ذلك حدث الغلو فى الدين، واستعرت نيران العداوات بين النظائر فيه، وسهل على كل منهم لجهله بدينه أن يرمى الآخر بالمروق منه لأدنى سبب.

وكلما زادوا جهلاً بدينهم ازدادوا غلوًا فى الباطل، ودخل العلم والفكر

والنظر (وهي من لوازم الدين الإسلامى) فى جملة ما كرهوه، وانقلب ما كان واجباً فى الدين محظوراً فيه".

ويقول الأستاذ فى تفسير سورة الغصن:

"ومن الناس من إذا سأله فى أمر يتعلق بعقيدة من العقائد فاجأك بقوله: لا تقل لك فتكفر أو تعتزل أو ما أشبه ذلك، وهو سلاح يتخذه المرتابون فى عقائدهم ترساً يدفعون به ما يخشون من الشبه التى تزلزل عقائدهم، ولكن هذا الدفاع يدل على ارتياب صاحبه فى عقيدته قبل الدفاع فإن صاحب اليقين يرتاح إلى كل ما يسمع، فإن وجد مخاطبة شبهة أمكنه أن يزيلها من نفسه. وتلك الطريقة من طرق الدفاع عن العقائد هى التى أغفلت دون المسلمين أبواب العلم؛ فإنه كلما لاح نور إلهى فى يقين الطالب يهديه إلى طلب الحق وجد من هذه الكلمات كالاعتزال والفلسفة ما يخمد ذلك النور فيه".

الدور الثاني أيضاً

تنظم دعوة الشيخ محمد هبده إلى الإصلاح الدينى - كما تبين مما سردناه آنفاً - أموراً ثلاثة:

أ - تحرير الفكر من قيد التقليد .

ب - اعتبار الدين من موازين العقل البشرى ، وعدة صديقاً للعلم .

ج - فهم الدين على طريقة السلف قبل ظهور الخلاف والرجوع فى

كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى .

ونحن نتناولها بالبحث على هذا الترتيب :

أ - تحرير الفكر من قيد التقليد

يقول الأستاذ فى كتاب " الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية " :

" فأول أساس وضع عليه الإسلام هو النظر العقلى ، والنظر عنده هو وسيلة الإيمان الصحيح . . بلغ هذا الأصل بالمسلمين أن قال قائلون من أهل السنة : إن الذى يستقصى جهده فى الوصول إلى الحق ثم لم يصل إليه ومات طالباً غير واقف عند الظن فهو ناج " .

يرد الأستاذ بالإيمان الصحيح اليقين ، وإليك ما يقوله فى اليقين نقلاً

من تفسيره سورة " العصر " :

" وليس الإيمان كذلك مجرد ما يسميه الناس اعتقاداً وإن كان بمحض

التقليد لا عمل لعقل ولا لوجدان فيه . . وإنما المراد منه ذلك التصديق المقرون

بطمأنينة النفس وخضوع القوى لحكم ما آفئ به . . .

أما هذا الإيمان الذى يتلقاه الناس من أفواه آبائهم فينشأ ابن المسلم لا يفهم معنى لما يعتقد أو يقول أبوه، وإنما ينطق كما ينطق، وتأخذه الحمية لما يراه يحمى له، لا يفهم لذلك معنى، ولا يجد لنفسه فيه بصيرة كما ينشأ ابن النصرانى أو ابن اليهودى أو ابن المجوسى على مثل ذلك، فهو مما لا يعتد الله به .

وزيده بياناً أيضاً قول الشيخ فى رسالة التوحيد:

"أنهى الإسلام على التقليد، وحمل عليه حملة لم يردها عنه القدر . . ونبه على أن السبق فى الزمان ليس آية من آيات العرفان، ولا مسمياً لعقول على عقول، ولا لأذهان على أذهان. وإنما السابق واللاحق فى التمييز والفترة سيان . . بهذا وما سبقه تم للإنسان بمقتضى دينه أمران عظيمان طالما حرم منهما، وهما: استقلال الإرادة، واستقلال الرأى والفكر، وبهما كملت إنسانيته، واستعد لأن يبلغ من السعادة ما هياها الله له بحكم الفطرة التى فطر عليها ."

يقرر الأستاذ أن لا نجاة إلا بالإيمان المبني على النظر وقيام الدليل، ويقول فى تفسير سورة العصر: "فإنه لا يقين مع التخرج من النظر، وإنما يكون اليقين بإطلاق النظر فى الأكوان طولها وعرضها، حتى يصل إلى الغاية التى يطلبها بدون تقييد، كما هدانا الله إلى ذلك فى كتابه؛ فإنه يخاطب الفكر والعقل والعلم بدون قيد ولا حد ."

ومعنى هذه الحرية التى يجعلها الأستاذ للنظر، يتبين على وجه واضح مما سنذكره.

قال فى رسالة التوحيد. "وتقرر بين المسلمين كافة - إلا من لا ثقة

بعقله ولا بدينه - أن من قضايا الدين ما لا يمكن الاعتقاد به إلا من طريق العقل، كالعلم بوجود الله، ويقدرته على إرسال الرسل".

قال في حاشيته على شرح الدواني على العقائد المضدية، التي كتبها سنة ١٢٩٣ هـ ولكنها لم تطبع إلا في آخر حياته سنة ١٣٢٢ هـ: "والحق الذي يرشد إليه الشرع والعقل، أن يذهب الناظر المتدين إلى إقامة البراهين الصحيحة على إثبات صانع واجب الوجود، ثم منه إلى إثبات النبوات، ثم يأخذ كل ما جاءت به النبوات، بالتصديق والتسليم".

وفي رسالة التوحيد:

"وإنما العقل بعد التصديق برسالة نبي أن يصدق بجميع ما جاء به، وإن لم يستطع الوصول إلى كنهه بعضه، والنفوذ إلى حقيقته، ولا يقضى عليه ذلك بقبول ما هو من باب المحال المؤدى إلى مثل الجمع بين النقيضين أو بين الضدين في موضوع واحد في آن واحد؛ فإن ذلك مما تنتزه النبوات عن أن تأتي به. فإن جاء ما يوهم ظاهرة ذلك في شيء من الوارد فيها، وجب على العقل أن يعتقد أن الظاهر غير مراد، وله الخيار بعد ذلك في التأويل مسترشداً ببقية ما جاء على لسان من ورد المتشابه في كلامه، وفي التفويض إلى الله في علمه".

والمفهوم من هذا القول أن على العقل أن يدعن لما ثبت في الدين وإن لم يفهمه. لكننا نجد في رسالة التوحيد نفسها قولاً آخر وهو:

"من اعتقد بالكتاب العزيز وبما فيه من الشرائع العملية وعسر عليه فهم أخبار الغيب على ما هي في ظاهر القول، وذهب بعقله إلى تأويلها بحقائق يقوم له الدليل عليها، مع الاعتقاد بحياة بعد الموت، وثواب وعقاب، بحيث

لا ينقص تأويله شيئاً من قيمة الوعد والوعيد، ولا ينقض شيئاً من بناء الشريعة فى التكليف، كان مؤمناً حقاً . . والأصل فى ذلك أن الإيمان هو اليقين فى الاعتقاد بالله ورسله واليوم الآخر، بلا قيد فى ذلك إلا احترام ما جاء على السنة الرسل " .

وهذا القول الثانى وإن كان أدنى إلى حرية النظر التى يهتف بذكرها الأستا كثيراً فإن وجه التفريق فيه بين الشرائع العملية وأخبار الغيب ليس بيبين .

ب - اعتبار الدين من موازين العقل وعده صديقاً للعلم

يرى الأستاذ أن وظيفة الدين غير وظيفة العلم، فلا موضع لتصادمهما وهما حاجتان من حاجات البشر قد لا تغنى إحداهما عن الأخرى .

وهذا قوله فى رسالة التوحيد:

ولكنها - أى الحاجة إلى الرسل - حاجة روحية، وكل ما لامس الحس منها فالقصد فيه إلى الروح وتطهيرها من دنس الأهواء الضالة، أو تقويم ملكاتها، أو إيداعها ما فيه سعادتها فى الحياتين .

أما تفضيل طرق المعيشة، والحدق فى وجوه الكسب، وتناول شهوات العقل إلى درك ما أعد الوصول إليه من أسرار العلم، فذلك مما لا دخل للرسالات فيه، إلا من وجه العظة العامة، والإرشاد إلى الاعتدال فيه . . وإنما الذى سبق تقريره هو أن العقل وحده لا يستقل بالوصول إلى ما فيه سعادة الأمم بدون مرشد إلهى، كما لا يستقل الحيوان فى درك جميع المحسوسات بحاسة البصر وحدها، بل لابد معها من السمع لإدراك

المسموعات مثلاً، كذلك الدين هو حاسة عامة لكشف ما يشتهه على العقل من وسائل السعادات* .

ولا يرى الأستاذ أن من عمل تمحيص الحقائق العلمية، والتعرض لما هو من أبحاث الفنون. وقد بين ذلك في قوله في رسالة التوحيد:

"ليس من وظائف الرسل ما هو من عمل المدرسين ومعلمي الصناعات، فليس ما جاءوا له تعليم التاريخ ولا تفصيل ما يحويه عالم الكواكب، ولا بيان ما اختلف من مركاتها ولا ما استكن في طبقات الأرض، ولا مقادير الطول فيها والعرض، ولا ما تحتاج إليه النباتات في نموها، ولا ما تفتقر إليه الحيوانات في بقاء أشخاصها وأنواعها، وغير ذلك مما وضعت له العلوم، وتسابقت في الوصول إلى دقائقه الفهوم؛ فإن ذلك كله من وسائل الكسب وتحصيل طرق الراحة، هدى إليه البشر بما أودع فيهم من الإدراك . . . أما ما ورد في كلام الأنبياء من الإشارة إلى شيء مما ذكرنا من أحوال الأفلاك أو هيئة الأرض، فإنما يقصد النظر إلى ما فيه من الدلالة على حكمة مبدعه أو توجيه الفكر إلى الغصو لإدراك أسرارهِ وبيدائعه".

وبذلك التمييز بين وظيفة الدين ووظيفة العلم، لم يترك الأستاذ سبباً للعداوة بينهما، ولا نقص من قيمة واحد منهما، ثم لم يكتف بهذا، بل زاد من مظاهر عطفه على العلم، فقال في رسالة التوحيد أيضاً: وعلى كل حال لا يجوز أن يقام الدين حاجزاً بين الأرواح وبين ما ميزها الله به من الاستعداد للعلم بحقائق الكائنات الممكنة بقدر الإمكان.

بل يجب أن يكون الدين، باعثاً لها على طلب العرفان، مطلباً لها باحترام البرهان، فارضاً عليها أن تبذل ما تستطيع من الجهد في معرفة ما بين

يديها من العوالم، ولكن مع التزام القصد، والوقوف في سلامة الاعتقاد عند الحد، ومن قال غير ذلك فقد جهل الدين، وجنى عليه جناية لا يغفرها له رب الدين".

- ٤ -

وصل بنا البحث إلى الغرض الثالث من أغراض الإصلاح الإسلامى التى توخاها المصلح العظيم الشيخ محمد عبده، وه من أجلها خطراً وأكبرها أثراً؛ لاتصاله بأسس الدين المقدسة وطريقة فهمها، ولظهور مذاهب الشيخ ومنارعه فى هذا الباب بأوضح من ظهورها فى سائر أبواب الإصلاح الدينى.

ج - فهم الدين على طريقة السلف قبل ظهور الخلاف والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى

الدين الإسلامى فى مذهب الشيخ محمد عبده على ما ذكره فى رسالة التوحيد:- " هو الدين الذى جاء به محمد ﷺ، وعقله من وعاه عنه عن صابته ومن عاصرهم، وجرى العمل عليه حيناً من الزمن بينهم بلا خلاف ولا اعتساف فى التأويل، ولا ميل مع الشيع".

فالأستاذ يرى أن الإسلام هو المبادئ التى جاء بها نبيه وثبت ورودها عنه على سداجتها، بل يرى أن الأستاذ ذلك فى جميع الأديان، فيقول فى كتاب الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية:

"عند النظر فى أى دين للحكم له أو عليه فى قضية من القضايا، يجب أن يؤخذ محصاً مما عرض عليه . . فإذا أريد أن يحتج بقول أو عمل لاتباع ذلك الدين فى بيان بعض أصوله فيؤخذ فى ذلك بقول أو عمل أقرب الناس

إلى منشأ الدين، ومن تلقوه على سذاجته التي ورد بها من صاحب الدين نفسه " .

ومنايع الدين الإسلام في سذاجته التي ورد بها من صاحب الدين نفسه مبنية في قول الشيخ في رسالة التوحيد:

" بعد أن ثبتت نبوته عليه السلام - بالدليل القاطع على ما بينا - وأنه إنما يخبر عن الله تعالى، فلا ريب أنه يجب تصديق خبره والإيمان بما جاء به. ونعني بما جاء به، ما صرح به في الكتاب العزيز، وما تواتر الخبر به تواتراً صحيحاً مستوفياً لشرائطه، وهو ما أخبر به جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب عادة في أمر محسوس .

ويجب أن يقتصر في الاعتقاد على ما هو صريح في الخبر . . أما أخبار الأحاد فإنما يجب الإيمان بما ورد فيها على من بلغته وصدق بصحة روايتها . . . حدث به أو قرره طعن في صدق الرسالة، وكذب بها: ويلحق به من أهمل في العلم بما تواتر وعلم أنه من الدين بالضرورة، وهو ما في الكتاب وقليل من السنة في العمل " .

الكتاب العزيز وقليل من السنة العملية هذا هو الأصل الذي ينبغي أن يرد إليه الدين الإسلامي في مذهب أستاذنا. ولما كان الثابت بالتواتر من السنة قليلاً فقد صرح الشيخ في تفسير سورة الفاتحة: " أنه يجب أن يكون القرآن أصلاً تحمل عليه المذاهب والآراء في الدين " .

لا غرو مع هذا أن تتوجه عزيمة الأستاذ في أخريات حياته إلى العناية بتفسير القرآن عناية تكاد تستغرق كل مجهوده في الإصلاح الديني .

قال جورجى زيدان فى ترجمته للأستاذ فى كتاب "تراجم مشاهير الشرق فى القرن التاسع عشر" :

"وأما تنقية الدين الإسلامى من الشوائب الطارئة عليه فأساس سعيه فيها أنه أطلق لفكره الحرية فى تفسير القرآن، ولم يتقيد بما قاله القدماء أو وضعوه من القواعد التى يحرم الأئمة تبديل شىء منها.

فرأى أن يحل نفسه من هذه القيود، ويفسر القرآن على ما يوافق روح هذا العصر، فيجعل أقواله وآراءه فيه موافقة لقواعد العلم الصحيح المبني على المشاهدة والاختبار، ولنواميس العمران، على ما بلغ إليه هذا العلم إلى الآن من مطابقته لأحكام العقل وأصول الدين، كما فعل النصارى فى تفسير الكتاب المقدس بعد ثبوت مذاهب العلم الجديد، وهو أوعر مسلكاً فى الإسلام لارتباط الدين بالسياسة فيه.

والقرآن أساس الدين والدنيا عندهم، فيعقلون على تفسير أهمية كبرى؛ لأنه مرجع الفقه وغيره من الأحكام الشرعية والسياسية".

يدعو الشيخ محمد عبده جميع الناس إلى فهم القرآن، وأخذ دينهم منه، فيقول فى مقدمة التفسير المطبوعة مع تفسير سورة الفاتحة:

"خاطب الله بالقرآن من كان فى زمن التنزيل، ولم يوجه الخطاب إليهم لخصوصية فى أشخاصهم، بل لأنهم من أفراد النوع الإنسانى الذى أنزل القرآن لهدايته.

يقول الله تعالى: ﴿يأيتها الناس اتقوا ربكم﴾. فهل يعقل أنه يرضى عنا بأن لا نفهم قوله هذا، ونكتفى بقول ناظر نظر فيه لم يأتنا من الله وحي

بوجوب اتباعه لا جملة ولا تفصيلاً؟ كلا! إنه يجب على كل واحد من الناس أن يفهم آيات الكتاب بقدر طاقته، لا فرق بين عالم وجاهل".

ويقول في هذه المقدمة أيضاً:

"ومن الممكن أن يتناول كل واحد من القرآن بقدر ما يجذب نفسه إلى الخير، ويصرفها عن الشر؛ فإن الله تعالى أنزله لهدايتنا، وهو يعلم منا كل أنواع الضعف الذى نحن عليه".

ويشتد الأستاذ في الرد على من يريدون الحجر على العقول أن تنظر في القرآن، لتستقى منه دينها، قائلاً في تفسير الفاتحة:

"ويمكن أن يقول بعض أهل هذا العصر: لا حاجة إلى التفسير والنظر في القرآن؛ لأن الأئمة السابقين نظروا في الكتاب والسنة واستنبطوا الأحكام منها، فما علينا إلا أن ننظر في كتبهم ونستغنى بها. وهكذا زعم بعضهم. ولو صح من تعظم شأن الفقه مخالف لإجماع الأمة من النبي - ﷺ - إلى آخر واحد من المؤمنين. ولا أدري كيف يخطر هذا على بال مسلم؟".

يعترف الأستاذ بأن الكلام في التفسير أصبح غير سهل، ولكنه يقرر أن نزول الكتاب هدى ونوراً لا يتحقق إلا بفهمه والاهتداء بهديه. وهذا قوله في تفسير سورة الفاتحة:

"التكلم في تفسير القرآن ليس بالأمر السهر، وربما كان من أصعب الأمور. وما كل ما صعب يترك. ولذلك لا ينبغي أن يمتنع الناس عن طلبه ووجوه الصعوبة كثيرة.

ولكن الله تعالى خفف علينا بأن أمرنا بالفهم والعقل للكلام؛ لأنه إنما

أنزل الكتاب نوراً وهدى، مبيئاً للناس شرائعه وأحكامه. ولا يكون كذلك إلا إذا كانوا يفهمونه".

أما وجهة الشيخ محمد عبده في ما تناوله من تفسير القرآن فقد بينها في مقدمة التفسير:

"والتفسير الذى نطلبه هو فهم القرآن من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم فى حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة؛ فإن هذا المقصد الأعلى منه، وما وراء هذا من المباحث تابع له أو وسيلة لتحصيله".

وجهة الطرافة فى تفسير القرآن هى حسن الطريقة فى البحث، ولطف التصوير لمعانى القرآن على ما يوافق ذوق هذه العصور وإدراكها وحاجاتها. والشيخ فى كلا الأمرين متأثر بمنهج الفكر الحديث. ونسوق لذلك أمثلة بالمقدار الذى يتسع له المقام، نجعلها على قسمين:

١ - ما هو طريف بأسلوبه فى البحث

٢ - ما هو طريف بمنازعه فى الفهم

ونأتى بهما مرتين هذا الترتيب ونجعلهما فى ختام بحثنا فيما أخذنا أنفسنا به من معالجة هذا الموضوع.

- ٥ -

الأستاذ الإمام طريف فى طريقته فى التفسير. وهو طريف بأسلوبه فى البحث، وبمنازعه فى الفهم. وإليك أمثلة من ذلك:

١ - أمثلة ما طريف بأسلوبه فى البحث.

قال الأستاذ فى تفسير سورة العصر، عند قوله تعالى: ﴿وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾:

"التواصى أن يوصى كل من الشخصين صاحبه بشيء، والحق ما يقابل الباطل، وهو يكاد يكون معروف المعنى عند كل الناس، وإنما يخطئ أغلبهم فى حمل هذا المعنى على جزئياته، فيأتى الواحد منهم إلى أشد الباطل بطلاناً ويقول إنه الحق، فلو حمل الحق لهذا على ما يراه الموصى حقاً لكان المعنى: وأوصى كل منهم صاحبه بما يعتقدُه حقاً وطالبه بالأخذ به، وربما كان الآخر لا يعتقد أن الحق مع موصيه فيكون التواصى ضرباً من التنازع؛ لأن كلا يدعو الآخر إلى ما يرضاه، وهو النزاع بعينه. فلا يصح حمل المعنى عليه. وإنما الذى يصح أن يقصد هو أن يوصى كل واحد صاحبه بتحرى الحق فى ما يعتقد، بأن ينبه إلى الحرص على البحث فى الأدلة، والتلطف فى النظر للموقوف على الحق الذى هو الواقع لا يختلف فيه بعد معرفة وجهه".

وفى تفسير جزء عم عند الكلام فى تفسير قوله تعالى: "كلا إن كتاب الفجار لفى سجين" من سورة المطففين ما يأتى:

"وقد رأيت فى بعض كتب أهل البحث فى اللغات أن الوحل يسمى فى اللغة الأيثيوبية (سنجون) بالجم العجمية مع إمالة فى حركة الواو، ولا يخفى ما فى معنى الوحل مع التسفل. وقد يكون هذا اللفظ من استعمال غرب اليمن؛ فإن كثيراً من الألفاظ الأيثيوبية لكثرة المخالطة بينهم وبين أهل الحبشة، استعملوه فيما يقارب الوحل، فلا يبعد أن يقال إن الكتاب فيه أى أنه مكتوب به، أو على التصوير والتمثيل. أى أن الأعمال لحبشها تصور وتمثل كأنها مكتوبة، ويكون معنى كون الوحل وما يقاربه كتاباً مرقوماً أن الأعمال بعد أن خطت به صار ذلك المداد القبيح كتاباً مرموقاً".

وفى تفسير السورة نفسها عند قوله تعالى: ﴿كلا إن كتاب الأبرار لفى

سجين﴾:

وقد رأيت عن بعض الباحثين فى اللغات الشرقية أن لفظ علوا فى اللغة الأثيوبية (الحبشة القديمة) معناه النقش باللون الأحمر. فإن لم يكن العليون من العلو فمن الجائز أن اللفظ دخل فى لغة اليمن وعرب الجنوب على معنى الزينة، ثم أطلق على كل مزين لطيف. وقد يدل على ذلك تخالف البناء والوزن على ما هو من معنى العلو".

٢ - أمثلة ما هو طريق بمنازعه فى الفهم:

يقول الشيخ فى تفسير جزء عم تفسيره لآية: ﴿والسما وما بناها﴾ فى سورة "الشمس":

"السما اسم لما علاك وارتفع فوق رأسك، وأنت إنما تتصور عند سماعك لفظ السما هذا الكون، الذى فوقك فيه الشمس والقمر وسائر الكواكب تجرى فى مجاريها، وتحرك فى مداراتها. هذا هو السما، وقد بناه الله أى رفعه وجعل كل كوكب من الكواكب منه بمنزلة لبنة من بناء سقف أو قبة أو جدران تحيط بك، وشد هذه الكواكب بعضها إلى بعض برباط الجاذبية العامة، كما تربط أجزاء البناء الواحد بما يوضع بينها عما تماسك به".

ويقول فى تفسير سورة "الفيل":

"وقد بينت لنا هذه السورة الكريمة أن ذلك الجدرى أو تلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش بواسطة فرق عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح.

فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب يحمل جراثيم بعض الأمراض، وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس

الذى تحمله الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات، فإذا اتصل بجسم دخل فى مسامه فأثار فيه تلك القروح التى تنتهى بإفساد الجسم وتساقط لحمه. وإن كثيراً من هذه الطيور الضعيفة يعد من أعظم جنود الله فى إهلاك من يريد إهلاكه من البشر.

وإن هذا الحيوان الصغير الذى يسمونه الآن بالمكروب لا يخرج عنها. وهو فرق وجماعات لا يحصى عددها إلا بارتها".

وفى سورة "الماعون":

"والحض على طعام المسكين: الحث عليه ودعوة الناس إليه، والذى لا يحض على إطعام المساكين لا يطعمهم فى العادة. فقله: ولا يحض على طعام المسكين كناية عن الذى لا يجود بشيء من ماله على الفقير المحتاج إلى القوت، الذى لا يستطيع له كسباً، وليس المسكين هو الذى يطلب منك أن تعطيه وهو قادر على قوت يومه، بل هذا هو الملحف الذى يجوز الإعراض عنه وتأديبه بمنعه ما يطلب. وإنما جاء بالكناية ليفيدك أنه إذا عرضت حاجة المسكين ولم تجد ما تعطيه فعليك أن تطلب من الناس أن يعطوه، وفيه حث للمصدقين بالدين على إغاثة الفقراء ولو بجمع المال من غيرهم، وهى طريقة الجمعيات الخيرية، فأصلها ثابت فى الكتاب .."

وجاء فى سورة الناس:

"فالمرسلون قسمان: قسم الجنة وهم الخلق المستترون الذين لا نعرفهم وإنما نجد فى أنفسنا أثراً ينسب إليهم. ولكل واحد من الناس شيطان، وهى قوة نازعة إلى الشر تحدث منها فى نفسه خواطر السوء. وإنما جعل الوسواس فى الصدور على ما عهد فى كلام العرب من أن الخواطر فى القلب، والقلب

عما حواه الصدر عندهم . وكثيراً ما يقال إن الشك يحوك في صدره، وما الشك إلا في نفسه وعقله . وأفاعيل العقل في المنح، وإن كان يظهر لها أثر في حركات الدم وضربات القلب وضيق الصدر أو انبساطه " .

هذه وجهة الأستاذ الإمام في دعوة الإصلاح الديني التي نهض بها مخلصاً جريئاً ولقى في سبيلها ما لقي . وهي دعوة سامية بما قامت عليه من المبادئ، سامية بما ترمى إليه من الأغراض الشريفة، سامية أيضاً بما تحمل الأستاذ من أجلها من الآلام .

ونناجي أستاذنا في ختام القول بنا نجاه به صديقه المرحوم إسماعيل

صبرى باشا:

ألا نم مع الأبرار في الخلد ناعماً فكم بت فينا ساهر العزم عانيا